العلمانية
وأثرها في أوروبا

عرض - تحليل - نقد

تأليف

أ.د/ محمد رشاد عبد العزيز دهمش

الطبعة الثانية

١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وأشرف المرسلين ، سيدنا محمد النبي الأمي الأمين وعلى آله وأصحابه أجمعين .

وبعد :

فمنذ الحروب الصليبية وأوربا تحمل العداء المر لأمة الإسلام وتحاول جاهدة بشتى الطرق ومختلف الوسائل الهيمنة عليها أو احتوائها والسيطرة على مقدراتها ، وذلك عن طريق نشر المذاهب والفلسفات والإيدلوجيات ، والنظريات الغربية المختلفة . ومحاولته إقناع أبناء المسلمين بها كي تبعدهم عن مصدر وجودهم ونبع قوتهم وسر بقائهم عن منهج القرآن الكريم ، وهدى نبيهم الأمين .

ولم تجد أوربا سلاحاً أشد تأثيراً وأقوى خداعا من الفكر العلماني فسارعت إلى تصديره لبلاد الإسلام إستجابة لوصية أحد أبنائها(١) التي تقول :

إذا أردتم أن تغزوا الاسلام وتقضوا على عقيدته ، عليكم أن توجهوا جهود هدمكم إلى نفوس الشباب المسلم والأمة الاسلامية بإماتة روح الاعتزاز بتاريخهم وكتابهم القرآن وتحويلهم عن كل ذلك بوساطة نشر ثقافتكم و تاريخكم ونشر روح الإباحية وتوفير عوامل الهدم المعنوى .

---

(١) المستشرق « ثاتلى » التى تلتقى مع وصية « لويس التاسع » الذى سجن فى المنصورة أثناء الحروب الصليبية وملخصها : أن الغزو الثقافى هو الطريق للسيطرة على المسلمين وعلى إمكاناتهم .

ومن هنا فإن أوربا قد لجأت إلى الغزو الثقافى والفكرى والفلسفى بشتى ألوانه ومختلف صوره فى حرب فكرية ضارية لا هوادة فيها ولا رحمة فعندما ظهرت العلمانية فى أوربا وأفسدت بيئتها وسممت الحياة فيها وأقصتها عن سكونها النفسى واستقرارها الروحى وهدوئها اليومى . قامت أوربا بتصدير الفكر العلمانى للعالم الاسلامى وزرع - فى بيئته - شجرتها الملعونة وذلك لتحقيق ما تهدف إليه من خضوع أبناء المسلمين لتعاليمها وسيرهم فى ركابها وتحركهم فى دائرتها .

وحتى يعلم الذين قد أحسنوا الظن بأوربا لخدعوا بفلسفتها، والذين لايزالون متمسكين بفكرها فإننى أضع بين يدى هؤلاء ما أحدثته العلمانية فى أوربا من شر مستطير ، علهم يسارعون فى تنحية هذا الفكر الخبيث عن حياتنا ويكونون فى يقظة عما يدبر لهم ويراد بهم ويدور من حولهم وليكون ذلك دافعاً لعودتهم إلى منهج ربهم وصنع حياتهم من جديد على هديه الكريم ونوره المبين .

هذا والله أسأل أن يوفقنى لخدمة الدين والعلم والوطن الاسلامى الكبير كما أسأله جل جلاله أن يجعل هذا البحث خالصا لوجهه الكريم وأن ينفع به عشاق العلم وطلاب الحقيقة ، وأن يسدد على الطريق القويم خطانا وأن يجعل الحق رائدنا .

« ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا » .

هذا وبالله التوفيق

د. محمد رشاد عبد العزيز

تحريراً فى شهر جمادى الأولى عام ١٤٠٨ هـ
الموافق شهر يناير سنة ١٩٨٨ م

تمهيد

العلمانية

ما هى العلمانية ؟

العلمانية : كلمة ذات أكثر من مدلول وذات تاريخ طويل وقد انتقلت هذه الكلمة — مع تتابع الأيام ومرور الزمن — من معنى إلى معنى آخر ، وقد حاول مترجموها عن اللغات الغربية إخفاء حقيقتها وزعموا أنها نظام علمى أو مذهب علمى ، وقصدهم من ذلك التمويه على المسلمين وخداعهم وتضليلهم وتقديم العلمانية لهم فى عبارة جذابة وصورة جميلة محببة إلى قلوبهم وعقولهم وهى صورة العلم .

وبهذا يتم استدراج المسلمين - عن طريق العلم الذى يحبونه ويهيمون به - إلى العلمانية لكن بالطريقة الغربية التى تنحى الدين عن الدولة وعن العلم وعن الحياة ، وعن الفرد والجماعة معا ، وشيئا فشيئا يبتعد المسلمون عن دينهم الحق مصدر حياتهم وقوتهم وأساس وجودهم ومنبع سعادتهم ، ويصبح المسلمون - بعد ذلك - تابعين للغرب فى نظمه وقوانينه ، سائرين فى فلكه ونفوذه .

لذا تقدم العلمانية للمسلمين فى نطاق العلم وهو نطاق يرد عنها عادية الإتهام ويبقى هدفها الحقيقى مختفياً وراء اللفظ المشتق من أقرب الأسماء إلى نفوس العرب والمسلمين .

أما حقيقة الأمر فإن لفظ العلمانية هو ترجمة للكلمة اللاتينية (secyvar)

ومعناها فى اللغات الأوربية [لا دينى] وزيادة منهم فى التمويه فإنهم لم ينسبوا الكلمة إلى « علم » فيقولوا [علمية] بكسر العين وهو القياس ، وإنما زادوا الألف والنون فى الاسم المنسوب وهو على غير القياس وإن جاء فى كلام المتأخرين مثل قولهم جسمانى ونورانى وذلك مبالغة منهم — كما قلنا فى الايهام والتضليل .

ويرى البعض أن العلمانية مشتقة من (علم) بفتح العين وهى على ذلك نظام دنيوى فى مقابل الآخرة ويرجح هذا الاتجاه بعض أصحاب الرأى إذ يقول :

« فالعلمانية » بفتح العين هنا ترجمة عليها بصمات أداة النسب السريانية لكلمة « لائيك » الفرنسية ومعناها « لادينيه » أو الدنيا فى مقابل الآخرة .

وهذا التعبير (لائيك) معناه دهرى — علمانى — بفتح العين نشره اليهود فى أوربا وفى فرنسا بالذات فيما بين القرنين الثالث عشر والتاسع عشر حيث تمكن دعاة العلمانية من الاستيلاء على الحكم فى فرنسا[1] .

ومهما يكن من شىء فإن العلمانية مصطلح يقصد به أن فى الحياة التى يعيشها الإنسان فى مجتمعه جانبين ، يتميز أحدهما عن الآخر .

جانب دنيوى وهو جانب الحياة الاقتصادية والسياسية والطبيعية أى التى تتصل بالطبيعة من الأرض وما فيها وما تحتها وما فوقها من إمكانيات ومصادر للثروة معلومة أو مجهولة يمكن كشفها .

وهذا الجانب ليست له قدسية ، بل هو جانب ينطوى على دنس وشر وهو

---

(١) الدكتور عبد الحليم محمود « دلائل النبوة ومعجزات الرسول » طبع دار الانسان سنه ١٣٩٤ هـ القاهرة (المقدمه) .

الدولة ، وجانب آخر قدسي وهو جانب الأسرة والوجود الإلهي على هذه الأرض وهو الكنيسة[1] .

وكان من المقرر أن يكون هدف العلمانية هو فصل الدين عن الدولة والتفريق بين المجتمع الكنسي والمجتمع المدني وإعطاء كل منها استقلاله ، دون أن يخضع أحدهما للاخر ، غير أن الذي حدث في أوربا لم يكن كذلك وإنما كان إعطاء الدولة القدرة على إخضاع الدين وضربه .

فإن العلمانية القائمة على أساس الفلسفة المادية لم تلبث أن جعلت غايتها محاربة الدين وإقصائه عن مختلف مجالات الحياة العامة وكذلك إقصاء رجاله والحد من تأثيرهم بعزلهم عن المعاهد الثقافية والعلمية ومنع التعليم الديني من المدارس ومصادرة أملاك الكنيسة وسيطرة العلمانية على الحكم والمدرسة وإبعاد الدين ومقرراته عن تكوين الثقافة أو الفكر السياسي والاجتماعي[2] .

وهكذا بدأت العلمانية لا دينية تنادي بفصل الدين عن الدولة أو الدين عن السياسة وانتهت بتنحية الدين من حياة الفرد والجماعة والدولة وضربه والتهكم به وحصاره في حيز ضيق في دور العبادات .

وعندما تسللت العلمانية إلى بلاد المسلمين قامت بالعمل على سيادة المفهوم الغربي لما يسمى ديناً وما يسمى دوله وتأكيد الفصل بينهما فكريا وعمليا حتى لايعود في يوم قريب إلى الدين سلطانه فيسيطر على الدوله ويوجهها .

---

(١) نحو القرآن . د/ محمد البهي الطبعة الأولى ص ١٣٧ سنه ١٩٧٦ الناشر مكتبة وهبة .

(٢) الايدلوجيات والفلسفات المعاصرة في ضوء الاسلام ـ أنور الجندي ـ ص ٣٢ دار الاعتصام .

وقد صدق « جان ريفرو » حين قال :

إن العلمانية كلمة لها رائحة البارود لما تثير من استجابات مضاربة متناقضة (١).

ولا علاقة للكلمة بالعلم ، وإنما علاقتها قائمة بالدين ولكن على أساس سلبي ، أى على أساس نفي الدين والقيم الدينية عن الحياة ، وأولى الترجمات بها في العربية أن تسميها (اللادينية) بصرف النظر عن دعوى العلمانية في الغرب : بأن العلمانية لا تعادى الدين إنما تبتعده فقط عن مجالات الحياة الواقعية : السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية ولكنها تترك للناس حرية التدين بالمعنى الفردى الاعتقادى على أن يظل هذا التدين مزاجا شخصيا لادخل له بأمور الحياة العملية بصرف النظر من هذا، فإن اللادينية هي أقرب ترجمة تؤدي المقصود من الكلمة عند أصحابها (٢).

وهكذا فنحن منذ البداية أمام مغالطة مقصودة ونحن أمام مصطلح منقول عن البيئة الغربية وليس له نظير في العربية أو الفكر الإسلامي وهو يحمل وراءه ثقل قرون من المفاهيم والممارسات الغربية في مجال الدين والحياة السياسية والاجتماعية . فضلا عن أنه يتعلق بدين غير الاسلام هو المسيحية الغربية .

والكلمة بهذه الصورة تكشف لنا عن أن الدعوة بأسرها تقع بالكامل.

---

(١) انظر ص ٤٢ من الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا ، د / يوسف القرضاوى الطبعه الثالثه عام ١٩٧٧ م مكتبة وهبة .

(٢) انظر ص ٧ من سقوط العلمانية للأستاذ أنور الجندى .

(٢) ص ٤٤٥ - ٤٤٦ مذاهب فكريه معاصرة : محمد قطب . دار الشروق طبعة أولى عام ١٩٨٣ بيروت .

فى سياق حركة التغريب الأوربية والاستعمار الثقافى التى يعانى منها عالم الاسلام منذ زمن بعيد والتى تعتمد أسلوب تصوير مفاهيم وأفكار الغرب على أنها مطلقة عامة ، وعلى أنها الحق الذى توصلت إليه البشرية فى تقدمها المطرد الواصل إلى ذروته فى أوربا .

ومن ثم يجرى فرض هذه المفاهيم دون مناقشة لها وإحلالها محل أى عقائد أو تصورات أخرى فى البلاد المقصودة(١) .

( ) انظر ص ١١ د/ محمد يحيى . ورقة ثقافية فى الرد على العلمانيين . طبعة أولى سنة ١٩٨٥ الناشر الزهراء للاعلام العربى .

الفصل الأول

كيف ظهرت العلمانية ؟

لقد بدأ ظهور العلمانية فى البيئة الأوربية كما قرر التاريخ ذلك وشهد الواقع به .

ولكن قد يدور فى خلد الإنسان سؤال ... لماذا ظهرت العلمانية فى أوربا بالذات ؟ ثم لماذا رحبت أوربا بها ، بل واحتضنتها ورفعت لواءها ، ثم حملت تعاليمها إلى بقاع أخرى من العالم . أرادت أن تضفى عليها الصبغة العلمانية ثم وهل سعدت أوربا بعلمانيتها ؟

والإجابة المتعجلة على هذا السؤال نقول :

إن النظام الكنسى الذى ظهر بعد المسيح عليه السلام واستطاع أن يشوه تعاليمه السمحة ، بل ويغيرها ويثبت فيها ما ليس منها ويمحو منها ما هو أصيل فيها ثم يجبر الناس بقوة السيف والعنف والارهاب على أن يخضعوا لما بدله ويقبلوه بل وأن يؤمنوا به ويعتقدوه .

فإذا خلع أحد من رعايا الكنيسة ثوب هذا الاعتقاد صب عليه العذاب صبا وحلت عليه اللعنة وطرد من رحمة الله ، وألقى به فى غياهب السجن وقتل تقتيلا .

وهذا كله باسم الدين وقداسته وتعاليم المسيح ، فأيقن الناس أن الدين وحرية الفكر والحياة نقيضان .

ومن هنا فإن لكل منهما طريقا ولكل منهما وجهة ، فلا دين مع الحياة ولا حياة مع الدين .

أما الاجابة المتأنية والنظرة الفاحصة التى تسير مع الاحداث خطوة خطوة والتى تقارن وتوازن وتفاضل وتبين الأسباب الأساسية والأصلية والعلل الأولى لكل حادثة .. فهى فى الصفحات التالية بعون الله تعالى ومشيئته .

دعوة المسيح عليه السلام

نزلت المسيحية لمواجهة المادية المتطرفة التى كانت شائعة فى بنى إسرائيل والعالم فى الرومانى كله يوم بعث المسيح عليه السلام .

مادية تغالى فى التشبث بالأرض والقيم الأرضية البحتة حتى لتقطع كل صلتها بعالم الروح وتنسى كل دواعى السماء .

لذلك كان من المناسب أن تشتمل على قدر غالب من الروحانية الصافية المرفرفة الجميلة ، لتتعادل مع تلك المادية لعلها تصلح النفوس .

ومن ثم كانت كل تعاليم المسيح عليه السلام دعوة للتطهر والروحانية ، دعوة ترتفع بالإنسان عن نفسه وتصل به إلى الآفاق العليا التى تسمو عن الجسد والمادة . . . الآفاق الطليقة من كل قيود الأرض ومن نوازع الشهوات .

ولكن هذه التعاليم المرفرفة الصافية لم يكن المقصود بها أن تكون هى النظام الدائم الذى تسير عليه البشرية ، فقد أنزل الله رسالته الأخيرة بعد ذلك بما يقرب من ستة قرون حين اقتضت الحكمة العليا أن ينزل النظام الأخير .

أجل . . . لقد هوى اليهود — قبل دعوة المسيح — فى مستنقع المادية وجذبوا الناس معهم ، وأخذوا يمتصون دماء المستضعفين وأضحى كل شىء لاقيمة له فى نظرهم إلا بمقدار نفعه المادى ، وانحرفوا عن منهج الله فضلوا وأضلوا .. فكان من رحمة الله تعالى أن يرسل من يعيد للحياة توازنها وللإنسان إستقراره لجاء المسيح عليه السلام[1] بدعوته التى تقوم — دون شك — على

---

(١) يقول د/ أحمد شلبى : كانت دعوة المسيح تحارب إتجاهين تأصلا =

أساس التوحيد فهو هتاف الأنبياء قاطبة وهو أساس الرسالات السماوية وغايتها وقطب رحاها وعمدتها ، ترتكز كلها عليه وتستند فى وجودها إليه منه تبتدىء وإليه تنتهى .

والمسيح عليه السلام كرسول من رسل الله تعالى كانت دعوته — بالمنطق والدليل وبالتاريخ والواقع وبكل مقاييس البشر — دعوة لتوحيد خالق هذا الكون جل جلاله .

والقرآن الكريم يوضح أن دعوة المسيح عليه السلام لم تخرج عن حقيقة التوحيد الخالدة ، وهذا ما يقرره المسيح يوم يجمع الله الرسل ويسأل عيسى هل طوى دعوة التوحيد وأعلن غيرها ؟ (وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ، قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب ، ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد)[1] .

بل إن أقوال المسيح عليه السلام التى تقرر دعوته إلى توحيد خالق السموات والأرض — تقرأها كثيراً فى الأناجيل .

ففى الآية الثالثة من الباب السابع عشر من إنجيل يوحنا جاء قول عيسى فى

= عند اليهود : شغفهم بالمادة وإهمالهم الناحية الروحية فيهم — إدعاؤهم أنهم شعب الله المختار وادعاء أحبارهم أنهم صلة بين الله والناس ، وبدونهم لا تتم الصلة بين الخالق والمخلوق . انظر ص ١٤ المسيحية طبعة خامسة .

(١) المائدة آيه ١١٦ — ١١٧ .

خطاب الله هكذا [وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته] ويعلق صاحب كتاب إظهار الحق على هذا بقوله(٢) :

لقد بين عيسى عليه السلام أن الحياة الأبدية عبارة عن أن يعرف الناس أن الله واحد حقيق وأن عيسى عليه السلام رسوله ، وما قال إن الحياة الأبدية أن يعرفوا أن الله ثلاثة أقانيم ممتازة بامتياز حقيقى وأن عيسى إنسان وإله ، أو أن عيسى إله بجسم .

ولما كان هذا القول فى خطاب الله فى الدعاء فلا احتمال هنا للخوف من اليهود ، فلو كان اعتقاد التثليث مدار النجاة لبينه ، وإذ ثبت أن الحياة الأبدية اعتقاد التوحيد الحقيقى لله واعتقاد الرسالة للمسيح فضدهما يكون موتاً أبدياً وضلالا مبينا ، والتوحيد الحقيقى ضد التثليث وكون المسيح رسولا ضد كونه إلها ، لأن التغاير بين المرسل والمرسل ضرورى .

وفى إنجيل مرقص (لجاء واحد من الكتبة(١) وسمعهم يتحاورون فلما رأى أنه أجابهم حسنا سأله : أى وصية هى أول الكل ؟

فأجابه يسوع : أن أول كل الوصايا ، اسمع يا إسرائيل :

الرب إلهنا رب واحد ، وتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك ، هذه هى الوصية الأولى ....

---

(١) رحمة الله الهندى ج ٢ ص ٣ فى كتابه إظهار الحق ـ مطبعة الرسالة ـ توزيع مكتبة الوحدة العربية ـ الدار البيضاء ـ بتصرف .

(٢) علماء اليهود منهم : ١ ـ الفرنسيون . ٢ ـ والصدوقيون ويطلق على الكل اسم الكتبة .

وثانية مثلها : هى أن تحب قريبك كنفسك ليس وصية أخرى أعظم من هاتين) فقال له الكاتب :

جيداً يا معلم بالحق قلت لأنه أى الله واحد وليس آخر سواه ومحبته من كل القلب ومن كل الفهم ومن كل النفس ومن كل القدرة ومحبة القريب كالنفس هى أفضل من جميع المحرقات[١] والذبائح)[٢] .

فلما رآه يسوع بعقل أنه أجاب قال له لست بعيداً عن ملكوت الله .

ويروى متى عن عيسى قوله (إن أباكم واحد الذى فى السماء)[٣] .

ويروى مرقص قول عيسى (الرب إلهنا إله واحد وليس آخر سواه)[٤] .

بل إن كتب العهد العتيق ناطقة بأن الله واحد أزلى أبدى لا يموت ، قادر يفعل ما يشاء ، ليس كمثله شىء ، لا فى الذات ولا فى الصفات ، وعبادة غير الله حرام ، وحرمتها مصرحة فى مواضع شتى من التوراة مثل الباب العشرين ، والرابع والثلاثين من سفر الخروج ، وقد صرح به فى الباب الثالث عشر من سفر الاستثناء : أنه لو دعا نبى أو من يدعى الإلهام فى المنام إلى عبادة غير الله يقتل هذا الداعى وإن كان ذا معجزات عظيمة .

وفى الباب السابع عشر من سفر المسطور : أنه لو ثبت على أحد عبادة غير الله يرجم رجلا كان أو امرأة[٥] .

---

(١) المحرقات : ذبح الحيوانات ووضعها على النار قرباناً لله .
(٢) الباب الثانى عشر من إنجيل متى من ٢٨ - ٣٣ نقلا عن أظهار الحق ، ص ٣٩٧ من الوحدانية د/ عبد الفتاح دويدار .
(٣) إصحاح ٢٣ فقرة ٨ .
(٤) إصحاح ١٢ فقرة ٣٠ - ٣١ .
(٥) إظهار الحق - رحمة الله الهندى جـ ١ ص ٣٦١ .

وجاء فى التوراة العبرانية المتداولة : قال موسى :

(الرب هو الاله ليس آخر سواه)[١] .

وقال داود النبى (يارب ليس مثلك ولا إله غيرك حسب كل ما سمعناه بآذاننا)[٢] .

وفى المزامير : « من هو إله غير الرب » المزمور ١٨ : ٢١ .

وفى أشعيا عن الله يقول : (أنا الرب وليس آخر : لا إله سواى)[٣] .

* * *

نخلص من هذا كله إلى أن دعوة التوحيد كانت الطابع المميز لرسالات الأنبياء جميعا ، والغاية الشريفة لرسالاتهم ، فالأنبياء والرسل جميعا إنما يمثلون أسرة واحدة تحمل راية التوحيد الخالدة [أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله] وعائلة واحدة أو هم على حد تعبير نبى الاسلام ﷺ [الأنبياء أخوة أمهاتهم شتى ودينهم واحد][٤] .

فالوحدانية إذن هى المظلة الكبرى التى استظلت بها الانسانية منذ وجد الانسان على الأرض وقبل أن ينحرف عن منهج الله القويم .

يقول الدكتور ستيفن هربرت أحد علماء الآثار وأستاذ « الآشوريات » بجامعة اكسفورد :

---

(١) تثنية ٤:٣٥ نقلا عن ص ٣٩٦ من الوحدانية د/ بركات دويدار . مكتبة النهضة المصرية .

(٢) أخبار الأيام الأول ١٧ — ٢٠ نقلا عن المرجع السابق .

(٣) أشعيا ٤٥ : ٥٠ عن الوحدانية د/ دويدار .

(٤) صحيح مسلم كتاب الفضائل .

إنى أذكر بثقة أن عقيدة الوحدانية فى الديانات السامية والسومرية قد سبقت الإيمان بعديد من الآلهة والاعتقاد بالارواح الخيرة والشريرة ، فكل الديانات السامية قد بدأت بالإيمان بإله واحد[١] .

ويؤيد ذلك سير بيەتر رينو مترجم « كتاب الموتى » للمصريين القدماء فيقول :

منذ أكثر من ٥٠٠٠ سنة ارتفعت فى ربوع وادى النيل أصوات التسابيح للاله الواحد وخلود التوحيد ، إن الاعتقاد بوحدانية الإله الأعظم وصفاته القدسية باعتباره الخالق الأوحد ومصدر الناموس الأدبى تبدو جوهرة لامعة ومتألقة خلال العصور الطويلة ، لذلك ومن ثم لا يمكننا القول بأن الفكر الدينى فى مصر القديمة قد تطور من الدرجات السفلى وتسامى إلى أعلى حتى وصل إلى عقيدة الوحدانية والخلود[٢] .

ويقول شميث العالم النمساوى فى كتابه « تطور الديانات » : إن الذى يدرس الآثار القديمة فى مختلف أنحاء العالم يستطيع أن يدرك أنه بين القبائل البدائية كانت تسود المتقدات بإله واحد وحياة خالدة قادمة[٣] .

فالذى جاء به الأنبياء جميعا ومنهم عيسى عليه السلام يخرج — على حد تعبير النجاشى — من مشكاة واحدة .

---

(١) مع المسيح فى الأناجيل الأربعة ص ١٥٦ فتحى عثمان طبعة ثانية .
(١) المرجع السابق والصفحة .
(٣) د. جون ألدر . الاحجار الكريمة . ترجمة عزت زكى ص ٢٦ – ٢٦ نقلا عن فتحى عثمان فى كتابه مع المسيح فى الاناجيل الاربعة ص١٥٧ .

ولذلك فنحن نرى مع صاحب كتاب المسيحية[١] أن أهم معالم المسيحية فى نظر المسلمين قبل التغيير والتحريف هى :

يعتقد المسلمون أن المسيحية الصحيحه دين توحيد مطلق وأنها تعترف أن الله وحده هو الإله الخالق ، فالتوحيد المطلق الذى لا تشوبه شائبة هو السمه العامه للأديان السماويه جميعها وعيسى هو رسول الله ليس غير .

والأدلة الآتية تؤيد المسلمين فى إعتقادهم، يقول الله تعالى فى كتابه الكريم (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد)[٢].

وجاء فى إنجيل متى[٣] :

وإذ واحد تقدم وقال له أيها المعلم الصالح أى صلاح أعمل لتكون لى الحياة الأبدية ؟ فقال له لماذا تدعونى صالحا ليس أحد صالحا إلا واحد وهو الله .

ويروى لوقا قول المسيح عندما حانت نهايته على الأرض : ينبغى أن أسير اليوم وغداً وما يليه لأنه لا يمكن أن يهلك نبى خارج أورشليم ، يا قاتله الأنبياء وراجمة المرسلين[٤] .

ونحن كذلك مع صاحب كتاب « محاضرات فى النصرانية »[٥] عندما يقول : ولقد كانت دعوة المسيح عليه السلام تقوم على أساس أنه لا واسطة بين الخالق والمخلوق ، ولا توسط بين العابد والمعبود ، فالاحبار والرهبان لم تكن لهم الوساطة بين الله والناس ، بل كل مسيحى يتصل بالله فى عبادته بنفسه من غير

---

(١) د. أحمد شلبى ص ٥٩ - ٦٠ طبعة خامسة سنة ١٩٧٧ م .
(٢) سورة المائدة آية ٧٣ .
(٣) ١٩ : ١٦ - ١٧ نقلا عن كتاب إظهار الحق ج ٢ ص ٥ .
(٤) لوقا ١٣ : ٣٣ - ٣٤ .
(٥) الشيخ أبو زهرة ص ١٥ طبعة ثالثة . دار الفكر العربى .

حاجة إلى توسط كاهن أو قسيس أو غيرهما ، وليس شخص - مهما تكن منزلته أو قداسته أو تقواه - وسيطا بين العبد والرب فى عبادته ، وتعرف أحكام شرعه مما أنزل الله على عيسى من كتاب وما أثر عنه من وصايا وما اقترنت به بعثته من أقوال ومواعظ .

* * *

وإذا كانت المسيحية رسالة سماوية نزلت على عيسى عليه السلام فكان - بها - عبد الله ، مناديا بوحدانية الله ، وداعيا الناس إلى صالح الأعمال .

فكيف اشتهرت المسيحية إذن بالتثليث؟ وكيف شوهت تلك التعاليم السامية لهذه الرسالة العظيمة ؟

هذا ما سوف نقف عليه فى الصفحات الآتية :

إضطهاد المسيحيين

لقد بذل المسيح عليه السلام جهودا مضنية من أجل هداية اليهود ونشر دعوته بينهم بل وجاءهم بالمعجزات ليحملهم على تصديقه والإيمان به ، ولكن لم تجد بين اليهود أرضا خصبة ، ولم يؤمن بها سوى أفراد قلائل، أما معظم الشعب اليهودى فقد أنكروا نبوته ورسالته ونسبوا معجزاته إلى رئيس الشياطين وليس إلى الله[١] .

ولشد ماكان ارتياع اليهود وغضبهم عندما شهدوا يسوع يكتسح أمامه كل ما يعتزون به من ضمانات « إذ يعلم الناس أن الله ليس من المساومين وأن ليس هناك شعب مختار وأن لا أحظياء فى مملكة السماء ، وأن الله هو الآب المحب لكل الأحياء وأنه لايستطيع إختصاص البعض بالرعايات عدم استطاعة الشمس ذلك مع الناس سواء بسواء »[٢] .

لقد فجع اليهود فى عيسى عليه السلام ، فقد انتظروه مسيحا يبسط سلطان إسرائيل على العالم أجمع ولكن خابت آمالهم فيه[٣] .

ولذا سارعوا فاغروا به الحاكم الرومانى عندما شاهدوا بعض الضعفاء يؤمنون برسالته وذلك خوفا أن تنتشر مبادؤه وأخذوا يطعنون فى نسب السيد المسيح وفى شخصه ورموه وأمه بأقزع الصفات[٤] .

---

(١) إنجيل متى ٩ : ٢٤ .
(٢) المسيحية . أحمد شلبى ص ٤٢ - ٤٣ .
(٣) يسوع المسيح ص ٣٧ للأب بولس إلياس .
(٤) ص ٨٣ الله واحد أم ثالوث .

وهكذا بدأت مطاردة المسيح ودعوته ولجأ اليهود إلى العنف والقسوة واضطهاد المسيحيين بعد المسيح وفى حياته أيضا . يقول الشيخ أبو زهرة[١] .

إتفقت المصادر شرقية وغربية ، دينية وغير دينية على أن المسيحيين نزل بهم بعد المسيح بلايا وكوارث جملتهم يستخفون بدياناتهم ويفرون بها أحيانا ، ويصمدون المضطهدين مستشهدين أحيانا أخرى وهم فى كلتا الحالتين لا شوكة لهم ولا قوة تحميهم وتحمى دياناتهم وكتبهم ، وإنه فى وسط هذه الاضطهادات يذكرون أنه دونت أناجيلهم الأربعة التى يؤمنون بها ودونت رسائلهم .

ولعل أبشع حركات الاضطهاد التى عاناها المسيحيون تلك التى أنزلها بهم « نيرون » الطاغية[٢] فقد ألقى بهم للوحوش الضارية تنهش أجسامهم وأمر فطليت أجسام بعضهم بالقار وأشعلت لتكون مصابيح بعض الاحتفالات التى يقيمها نيرون فى حدائق قصره[٣] .

واستمر هذا الاضطهاد حتى بلغ الذروة فى عهد « دقلديانوس »[٤] حيث أمر بالقبض على الكهان ورجال الدين وقد استشهد الكثيرون بعد أن مزقت أجسامهم بالسياط والمخالب الحديدية ، أو أحرقت بالنار ، أو قطعت إربا ، أو طرحت للوحوش الضارية ولقد سمى عصره بعصر الشهداء[٤] .

يقول الدكتور متى : وكان دقلديانوس هو الذى أمر بالاضطهاد الكبير

---

(١) محاضرات فى النصرانية صـ ٣٤ .
(٢) عام ٦٨ م .
(٣) زكى شنودة جـ ١ صـ ١٠١ تاريخ الأقباط .
(٤) القرن الثالث الميلادى (٢٨٤ - ٣٠٥ م) .
(٥) الاضطهاد الدينى فى الإسلام والمسيحية صـ ٣٥ د . توفيق الطويل .

الذى وقع على المسيحيين فى القرن الرابع وقد نص مرسومه عام ٣٠٢ م على محو كنائسهم وحرق كتبهم وطرد كل من يشغل منهم وظيفة مدنية أو عسكرية من منصبه ، وأمر بفرض جميع أنواع العقوبات — باستثناء الاعدام — ولكن حتى الاعدام نفسه طبقه وعلى مقياس واسع .

ثم يقول : واستمر الاضطهاد مدة عشر سنوات لا يحدها شيء واستخدمت عبقريات السوء لابتكار وسائل جديدة للتعذيب ، وبعد سنوات قليلة أصبحت المسيحية الديانة الرسمية للدولة وكان اضطهاد دقلديانوس آخر اضطهاد فى عهد الدولة الرومانية[١] .

---

(١) د. حتى : تاريخ سوريا ح ٤ ترجمة د . اليازجى ص ٣٦٧ — ٣٦٨ نقلا عن المسيحية فى الأناجيل الاربعة ص ٢٥٣ فتحى عثمان .

من المسالمة إلى العنف

وهذا ما جعل المسيحية تتحول من دعوة للسماحة إلى دعوة للاضطهاد والعنف كرد فعل لهذا العذاب والآلام الذى صب على أتباعها صباً والذى جعل كثيراً منهم يختفى بدينه بل ويتقبل ما يلقى دون أن يحاول أو يستطيع التأكد من نسبته إلى المسيح عليه السلام ، واضطر المبشرون المسيحيون إلى تطعيم دياناتهم ببعض الطقوس والعادات والشعائر التى وجدوها عند الرومان واليونانيين الوثنيين بعد اضطهاد اليهود لهم ، فقد رأوا أن هذه هى الطريقة الوحيدة لتقريب الديانه المسيحية إلى أذهان هؤلاء الوثنيين ، وظنوا أنه مع مرور الوقت فإن المسيحية ستتطهر من تلك العادات والطقوس ، وستعود إلى صفائها ونبعها النقى الأصيل .

تحريف المسيحية :

ولقد تحول فعلا إلى المسيحية كثير من الوثنيين ولكنهم نقلوا إليها أيضاً المزيد من العادات والشعائر الوثنية ، واضطر الحواريون والمبشرون والمسيحيون — مرة اخرى — للسكوت ، بل وبالترحيب بهذا كله حتى لا يترك هؤلاء الوثنيون المسيحية فى ثوبها الجديد. فقد تستقيم الأمور بعد ذلك وتتمكن المسيحية من نفى ما لحق بها من تحريف فيسير الجميع على المنهج الصحيح .

ولكن الواقع المؤلم أن الذى حدث فعلا هو عكس ما توقعه أولئك المبشرون البسطاء ، فقد تغلبت تلك الطقوس والشعائر الوثنية وطمست جوهر الرسالة السماوية العظيمة[١] وشوهت تعاليمها الحقة ومبادئها السمحة وتركت نداء التوحيد

---

(١) الله واحد أم ثالث بتصرف ص ٨٤ .

الخالد ومنهج الله القويم ، وظهرت على العالم بشيء جديد وغريب ألا وهو دعوة التثليث .

مسيحية بولس الجديدة :

أجل : لقد إختفت رسالة السماء التى نزلت على عيسى عليه السلام إختفت مسيحية عيسى ، وظهرت مسيحية شاول أو بولس الجديدة المحرفة ، وعملية التحريف التى إستمرت قروناً متطاولة والتى كان لبولس نصيب الأسد فيها ،حيث أثار موضوع ألوهية المسيح لأول مرة مدعياً أنه ابن الله ، وكان هذا الزعم هو الخطوة الأولى للتثليث .

وكلنا يؤمن أن عيسى عليه السلام أو على حد قول دائرة المعارف البريطانية : أن سيدنا عيسى عليه السلام لم تصدر عنه أى دعوة تفيد أنه من عنصر إلهى أو من عنصر أعلى من العنصر الإنسانى المشترك (١) ، وأن المراسيم والطقوس الكنسية المعمول بها الان لم يمارسها سيدنا المسيح نفسه ولم يأمر بها (٢) ، بل إن الأصول التى تتكون منها العقيدة المسيحية لا نجد لها سنداً حتى فى الإنجيل نفسه .

يقول المفكر المسيحى « برى » :

وكان عيسى يهوديا وقد ظل كذلك أبداً ولكن (شاول) كون المسيحية على على حساب عيسى ، فشاول هو فى الحقيقة مؤسس المسيحية وقد أدخل بولس على ديانتهم بعض تعاليم اليهود ليجذب له العامة من اليهود كما أدخل صوراً من فلسفة الاغريق ليجذب أتباعاً له من اليونان (٣) .

---

(١) ص ٦٣٢ المجلد الخامس طبعة ١٩٥٣ نقلا عن الجفوة المفتعلة بين العلم والدين : محمد على يوسف ص ١٤ .

(٢) دائرة المعارف البريطانية ص ٦٣٧ طبعة ١٩٥٣ .

(٣) نقلا عن المسيحية د . أحمد شلبي ص ٨٤ طبعة خامسة ١٩٧٧ م .

ويقول هـ . ج . ويلز :

كان القديس بولس من أعظم من أنشأوا الكنيسة الحديثة وهو لم ير عيسى قط ، ولا سمعه يبشر الناس ، وكان إسم بولس فى الأصل شاؤل ، وكان فى بادىء الأمر من أنشط وأبرز المضطهدين لفئة الحواريين القليلة العدد ، ثم إعتنق المسيحية فجأة وغير إسمه فجعله بولس ، وقد أوتى ذلك الرجل قوة عقلية عظيمة ، كما كان شديد الاهتمام بحركات زمانه الدينية فنراه على علم عظيم باليهودية والمتراسية وديانة ذلك الزمان التى تعتنقها الإسكندرية، فنقل إلى المسيحية كثيراً من فكراتهم ومصطلح تعبيرهم، ولم يهتم بتوسيع فكرة عيسى الأصلية وتنميتها وهى (ملكوت السموات) ولكنه علم الناس أن عيسى لم يكن المسيح الموعود فحسب ولا زعيم اليهود المنتظر فقط بل إنه ابن الله نزل إلى الأرض ليقدم نفسه قرباناً ويصلب تكفيراً عن خطايا البشر [١] .

ويقول الشيخ أبو زهرة [٢] فى معرض حديثه عن ذكاء بولس وصفاته :

وبهذه الصفات الممتازة وبهذه القدرة البارعة ، إستطاع أن يجعل نفسه محور الدعاة للمسيحيه وأن يفرض ما ارتآه على المسيحية فيعتنقوه دينا ويتخذوا قوله حجة زاعمين أنه رسالة أرسل بها . وبهذه الصفات الباهرة ، إستطاع أن يحمل صديقة برنابا على أن يصدقه فى رؤيته للمسيح [٣] ، واستطاع أن يحتل المنزلة

---

(١) نقلا عن المسيحية ص ١٤٢ . د . أحمد شلبى .

(٢) محاضرات فى النصرانية .

(٣) زعم شاؤل أنه وهو فى طريقه لإيذاء أتباع المسيح على طريق دمشق — أبرق حوله نور من السماء فسقط على الأرض ، ثم سمع صوتا يقول له شاؤل شاؤل لماذا تضطهدونى ؟ فقال من أنت ياسيد ؟ فقال الرب : أنا يسوع الذى تضطهده ، فقال وهو مرتعد ومتحير : يارب ماذا تريد أن أفعل؟فقال له الرب =

الأولى بين التلاميذ وقدكان بلاءهم وكيد الشيطان لهم . وبهذه الصفات القوية استطاع أن يحملهم على نسيان ماضيه وأن يندغموا فى شخصه حتى يصير هو كل شيء وهم لا يستطيعون رد قوله فى الجماهير حتى صارت المسيحيه الحاضرة مطبوعه بطابعه منسوبه إليه [١] .

مجمع نيقية :

ولقد وقف المخلصون للمسيحيه فى وجه مزاعم بولس وأعلنوها عليه حربا شعواء ووقفوا ضده ولكنهم لم ينجحوا فى القضاء على مزاعمه ؛ بل وقرر المجتمعون فى « مجمع نيقية[٢] » ما جاء به بولس بقوة السيف وجبروت السلطان، حيث وضع قسطنطين حدا للخلاف الناشيء بين المسيحيين حول طبيعة المسيح وذلك باعتماد الرأى القائل بألوهيه المسيح والتثليث .

وبعد إقرار التأليه أرادوا أن يكملوا الثالوث الإلهى ، فقالو بألوهيه الروح القدس فى مجمع القسطنطينيه الأول [٣] .

= قم وادخل المدينه فيقال لك ماذا ينبغى أن تفعل ، وللوقت جعل يكرز فى فى المجامع بالمسيح : إن هذا هو ابن الله ، ثم ادعى أن العالم تأتيه من يسوع المسيح (وأعرفكم أيها الأخوة الانجيل الذى اشرت به أنه ليس بحسب إنسان لأنى لم أقبله من عند إنسان ولا تعلمته . بل بإعلان يسوع المسيح .

راجع أعمال الرسل : ٩ - ٣ - ٧ ، وانظر دراسات فى النصرانيه للدكتور محمود مزروعة ص ٩٧ - ٩٧ .

(١) محاضرات فى النصرانيه للشيخ أبو زهرة ص ٨٦ - ٨٧ .

(٢) عقد هذا المجمع عام ٣٢٥ م .

(٣) عقد هذا المجمع فى عام ٣٨١ م واجتمع ٢٠٤٨ بطريقا وأساقفهوصاح أريوس المصرى أن الآب وحده الله والإبن مخلوق مصنوع ، وقدكان الآب =

وبهذا تم - فى نظرهم - الإله المثلث فكانوا يقولون :

نومن بالله الواحد الاب . . والإبن الواحد يسوع بن الله الوحد ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من روح القدس الواحد الذى يخرج من أبيه [1] .

وتوالت المجامع وخرجت منها القرارات التى أعطت الكنيسة حق الغفران والحرمان.

ومنح هذا الحق لمن تشاء من القساوسة ورجال الكهنوت إلخ .

= إذ لم يكن الإبن، ومع هذا مال قسطنطين لالوهية المسيح مع ٣١٨ فقط وتعقب من يقول بالتوحيد تشريداً وقتلا وتعذيباً وحرقا لكتبهم ومحاربة لأقوالهم — انظر دراسات فى النصرانية د / محمود مزروعة ص ١٠٤ ، المسيحية ص ١٤٥ د . أحمد شلبى ، ومحاضرات فى النصرانية ص ١٤٩ - ١٥٠ أبو زهرة ط دار الفكر العربى .

(١) الملل والنحل للشهرشتانى مع الفصل لابن حزم ج ٢ ص ٦٣ الطبعة الثانية بيروت ١٩٧٥ م .

الفصل الثانى

نقد عقيدة الثالوث المسيحى

يرى فلاسفة المسيحية أن الله سبحانه وتعالى — يتكون من ثلاثة أقانيم[1] أى ثلاثة عناصر وأجزاء ، وهذه الأقانيم أو العناصر الثلاثة هى الذات والنطق والحياة .

فالله موجود بذاته ، ناطق بكلمته، حى بروحه وكل خاصية من هذه الخواص أو العناصر التى يتكون منها الله تعطيه وصفاً معيناً أو مظهراً خاصاً .

فإذا تجلى الله بصفته ذاتا سمى الآب

وإذا نطـــق فهـــو الإبن

وإذا ظهر كحياة فهو الروح القدس[2]

يقول الدكتور « بوست » فى تاريخ الكتاب المقدس :

طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية ، الله الآب ، والله الإبن ، والله الروح القدس ، فإن الآب ينتمى الخلق بواسطة الإبن ، وإلى الإبن الفداء، وإلى الروح القدس التطهير[3] .

---

(١) الأقانيم كلمة سريانية الأصل . مفردها أقنوم . وهى تعنى شخص أو كائن مستقل بذاته .

(٢) الله واحد أم ثالوث ص ٩ .

(٣) انظر الشيخ أبو زهرة . محاضرات فى النصرانية .

ويفهم من هذا أن الاقانيم الثلاثة عناصر متلازمة لذات الخالق . ولقد تقررت عقيدة التثليث فى المجمع القسطنطينى (١) حيث أضيفت إلى صيغة الامانة ما يلى :

(ونؤمن بروح القدس الحى المنبثق من الآب الذى هو مع الآب والإبن مسجود له وممجد) والآب والإبن وروح القدس (هى ثلاثة أقانيم ، وثلاثة وجوه وثلاثة خواص) توحيد فى تثليث فى توحيد، كيان واحد بثلاثة أقانيم، إله واحد طبيعة واحدة — وفى تبرير عقيدة التثليث هذه يقول القس بولس إلياس فى كتابه « يسوع المسيح » !

من الناس من يقول : لم يا ترى إله واحد فى ثلاثة أقانيم ؟

أو ليس فى تعدد الأقانيم إنتقاص لقدرة الله ؟ أو ليس من الأفضل أن يقال الله واحد وحسب ؟

ويرد على نفسه قائلا :

لكننا إذا اطلعنا على كنه الله لا يسعنا إلا القول بالتثليث . وكنه الله محبة (يوحنا الأول ٤ : ١٦) ولا يمكن إلا أن يكون محبة ليكون الله سعيدا ، فالمحبة هى مصدر سعادة الله .

والمحبة تفترض شخصين على الأقل يتحابان ، وتفترض مع ذلك وحدة تامة بينهما ، بحيث يندفع المحب إلى هبة الذات لمن يحب ، هبة تكون فيها سعادتهما ، فليكون الله سعيدا كان عليه أن تهب ذاته شخصا آخر يجد فيه سعادته ومنتهى رغباته ، ويكون بالتالى صورة ناطقة له ، ولهذا ولد الله الإبن منذ الأزل نتيجة

---

(١) عام ٣٨١ م كما تقدم .

لحبه إياه ووهبه ذاته ووجد فيه سعادته ومنتهى رغباته ، وبادل الإبن الآب هذه المحبة ووجد فيه سعادته ومنتهى رغباته ، وثمرة هذه المحبة المتبادلة بين الآب والابن كانت الروح القدس .

هو الحب إذاً يجعل الله ثالوثا واحدا معا . ثم يقول :

ليس الله إذن كائنا تائها فى الفضاء منعزلا فى السماء ، لكنه أسرة مؤلفة من أقانيم ثلاثة ، تسودها المحبة ، وتفيض منها على الكون براءته ، وهكذا يمكننا أن نقول : إن كنه الله يفرض هذا التثليث(١) .

ويقول الأستاذ « يس منصور » :

إن الأقانيم ليست مجرد أسماء تطلق على الله ، أو مجرد صفات ينعت بها ، بل ثلاث شخصيات متميزة غير منفصلة ، متساوية فائقة عن التصور(٢) .

هذه هى عقيدة القوم ، التى لا يقبلها عقل أو يقرها منطق أو تتفق مع الفطر السليمة أو الطباع المستقيمة ، وهى على حد تعبير « يس منصور » فائقة عن التصور .

ويكفى أن المعتقدين لها أنفسهم لا يستطيعون شرحها ، ولا تستطيع عقولهم هضمها أو فهمها ، وكلما حاولوا شرحها زادت تعقيداً على تعقيد ، ومن هنا كان اعترافهم بعجز أذهانهم عن تصور أكبر أكذوبة فى التاريخ البشرى كله ، ومن هنا أيضا جاءت اعترافاتهم .

---

(١) الآب بولس الياس اليسوعى : يسوع المسيح ص ٧٦ - ١٧٧ وانظر ص ١٢٧ - ١٢٨ من المسيحية أحمد شلبى و ص ١٧ من الله واحد أم ثالوث .
(٢) رسالة التثليث والتوحيد ص ١٥٦ .

يقول القس توفيق جيد فى كتابه « الأسر الأزل » :

إن تسمية الثالوث باسم الآب والإبن والروح القدس تعبر أعماقا إلهية ، وأسرارا سماوية لا يجوز لنا أن نتفلسف فى تفكيكها وتحليلها ، أو نلصق بها أفكاراً من عندياتنا[١] .

ويقول أيضا :

إن الثالوث سر يصعب فهمه وإدراكه وأن من يحاول إدراك سر الثالوث تمام الإدراك كمن يحاول وضع مياه المحيط كلها فى كفه[٢] .

والقديس توما الاكوينى[٣] يقرر أن الحقائق التى يقدمها الإيمان لا يقوى العقل على التدليل عليها، فنى استطاعة العقل أن يتصور ماهية الله ولكنه لا يستطيع أن يدرك تثليث الاقانيم ، ومن دلل على عقيدة التثليث فى الاقانيم حقر من شأن الإيمان »[٤] .

ويقول القس وهيب عطا الله :

إن التجسد قضية فيها تناقض مع العقل والمنطق والحس والمادة والمصطلحات الفلسفية ، ولكننا نصدق ونؤمن أن هذا ممكن حتى ولو لم يكن معقولا[٥] .

---

(١) سر الأزل ص ٥٩ .
(٢) المصدر السابق ص ١١ وانظر الله واحد أم ثالوث ص ٧٠ .
(٣) عام ١٢٨٤ م .
(٤) قضية النزاع بين الدين والفلسفة د/ توفيق الطويل – طبعة ثانية – ص ٨٧ – مكتبة مصر .
(٥) طبيعة السيد المسيح – وهيب عطا – نقلا عن المسيحية ص ١٣٩ .

ويقول « ليكونت دينوى » :

إن العقيدة المسيحية أصبحت لا يمكن أن تستوعبها الغالبية العظمى من الناس فى الوقت الحاضر أكثر مما يمكنها أن تستوعب النظرية النسبية[١] .

ويقول القس « بوطر » بعد بيان عقيدة التثليث :

قد فهمنا ذلك على قدر طاقة عقولنا ونرجو أن نفهمه فهما أكثر جلاء فى المستقبل حين ينكشف لنا الحجاب عن كل ما فى السموات وما فى الأرض ، وأما فى الوقت الحاضر ففى القدر الذى فهمناه كفاية[٢] .

وهذا — دون شك — إعتراف من هذا القس المسيحى بأن عقيدته لا يمكن فهمها على نطاق أكثر من هذا وهو ينتظر يوم التكشف عن البصائر لإدراك هذا الاعتقاد واستساغته ، ونحن معه منتظرون ، وإن إنتظارنا سيطول ، بل وهذا اليوم — حسب إعتقادنا — لن يأتى ، وأنى يأتى يوم تلتقى فيه الوحدانية بالتثليث ، وتصبح ديانة الوثنية والفلسفة الاغريقية دينا يدعى أنه نزل من عند الله ؟

(١) مصير البشرية ترجمة : أحمد عزت وعصام أحمد نقلا عن الجفوة بين العلم والدين ص ١٥ .

(٢) رسالة الأصول والفروع للقس بوطر ص ٤٠ .

(٣) رسالة المعاش والمعاد ج ١ ص ٩١ من رسائل الجاحظ .

المسيحية والعقل

إن العقل يرفض قبول هذا المستحيل ، والعقل — كما يقول الجاحظ[1] — هو وكيل الله عند الإنسان ...

إن العقل يرفض قبول الواحد ثلاثة والثلاثة واحد . يرفض العقل هذه المسيحية ، لأنها قامت — بعقائدها وتعاليمها — على أكتاف بولس وأنه على حد تعبير دائرة المعارف البريطانية : لم يبق فيها من أعمال السيد المسيح شيء ولا كلمة واحدة مكتوبة[2] .

ها هو «ابن حزم» يقول فى معرض مناقشتهم وبيان إستحالة عقيدتهم عقلا :

[وكيف يمكن أن يصبح الثلاثة شيئا واحدا ؟ وبأى معنى — إذن — إستحق أن يسمى أحدهما أبا والآخر إبنا مع أن الإنجيل يقول : سأقعد على يمين أبى » وأن القيامة لا يعلمها إلا الآب وحده .

فهذا يوجب أن الآب غير الابن . وإن كانت الثلاثة متغايرة فيلزم أن يكون فى الابن معنى من الضعف أو الحدوث يوجب أن ينحط عن درجة الآب . والنقص ليس من صفة الذى لم يزل][3] .

وها هو الإمام ابن تيمية بعد أن فند عقيدة التثليث بقوة وعمق يقول : « إنهم يثبتون ثلاثة جواهر وثلاثة آلهة ويقولون مع ذلك إنما نثبت جوهراً

---

(١) رسالة المعاش والمعاد جـ ١ صـ ٩١ .
(٢) انظر الجفوة بين العلم والدين صـ ١٣ .
(٣) انظر الفصل لابن حزم جـ ١ صـ ..

واحـــدا وإلها واحدا وهذا جمع بين النقيضين . فهو حقيقة قولهم يجمعون بين جعل الالهة واحدا ، وإثبات ثلاثة آلهة ، وبين إثبات جوهر واحد ، وبين إثبات ثلاثة جواهر .

وقد نزه الله نفسه عن ذلك بقوله (قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد)[١] فنزه نفسه أن يلد كما يقولون : هو الأب وأن يولد كما يقولون هو الابن وأن يكون له كفوا أحد[٢] .

ومن هنا كان هجوم المفكرين الاحرار على المسيحية وتهكمهم بها وسخريتهم بعقائدها ورفضهم قبولها، واعتقادهم بأنها مأخوذة من الوثنية والعبادات والافكار والتصورات والأساطير الاغريقية وغيرها .

يقول « ديوارنت » وهو يتحدث عن تأثير عبادة المصريين فى المسيحية : [وكان لهذه الأساطير والرموز الشعرية الفلسفية أعمق الأثر فى الطقوس المسيحية وفى الدين المسيحى حتى إن المسيحيين الأولين كانوا أحياناً يصلون أمام تمثال « إيزيس » الذى يصورها وهى ترضع طفلها « حورس » وكانوا يرون فيها صورة أخرى للاسطورة القديمة النبيلة أسطوره المرأة الخالقة لكل شىء ، والتى تصبح آخر الأمر أم الإله .

وكانت هذه الالهة رع وأوزير وإيزيس وحورس - أعظم أرباب مصر .

ولما تقادم العهد إمتزج رع وآمون وإله آخر هو فتاح فأصبحت ثلاث

---

(١) سورة الإخلاص آية ١ - ٤ .

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لشيخ الإسلام ابن تيمية جـ ٢ ص ١١٧ - ١١٨ - مطابع المجد .

صور لإله واحد أعلى يجمعها هي الثلاثة[١] .

ويقول الدكتور سامى جبرة :

إن كثيرا من المفكرين يتجهون إلى أن الثالوث يرجع إلى خمسة عشر قرنا على الأقل قبل مولد المسيح ، فقد وجد في مصر في ذلك التاريخ ، وتأثر الفكر المسيحى بالفكر المصرى وبخاصة بسبب قرب المسافة بين موطن للفكر الفرعوني والفكر المسيحى[٢] .

ويقول الدكتور محمد حماد :

المسيحية كدين ليست بعيدة في أسسها عن العقائد المصرية القديمة وهناك تشابه كبير بين الاثنين في كثير من الوجوه[٣] .

***

أجل : لقد كانت عقيدة التثليث التي حيرت العقول . . كل العقول ، هي المعول الذي رفعه الأحرار وتوالت منه الضربات على مر الأيام وتتابع الأجيال على المسيحية المحرفة وأناجيلها المزيفة التي زعم قساوستها أنهم استقوا عقيدتهم منها .

يقول شارلى جنيبر عن تعارض الأناجيل :

« وتصفح الأناجيل[٤] وحده يكفي لإقناعنا بأن مؤلفيها قد توصلوا إلى

---

(١) قضية الحضارة المجلد الأول ج ٢ ص ١٥٩ - ١٦٠ .

(٢) المسيحية لأحمد شلبي ص ١٧٣ .

(٣) الفنون والطرز القبطية - د. محمد حماد ص ٦ .

(٤) الأناجيل المعتبرة عند النصارى هي : إنجيل متى وإنجيل مرقص =

تركيبات واضحة التعارض لنفس الأحداث والأحاديث ، مما تحتم معه القول بأنهم لم يلتمسوا الحقيقة الواقعية ، ولم يستلهموا تاريخا ثابتا يفرض تسلسل حوادثه عليهم ، بل على العكس من ذلك إتبع كل هواه وخطته الخاصة فى تنسيق وترتيب مؤلفه »[١] .

ويقول ابن حزم :

« والنصارى لايدعون أن الاناجيل منزلة من عند الله على المسيح ، ولا أن المسيح أتاهم بها ، بل كلهم لا يختلفون فى أنها أربعة تواريخ ألفها أربعة رجال معروفون فى أزمان مختلفة[٢] .

ويقول هـ . ج . ولز :

إن بعض الكتاب يرى أن السيد المسيح لا تربطه بالمسيحية الحاضرة أية صلة. ويقول أيضا :

إن السيد المسيح هو واضع نواة المسيحية وليس منشئها[٣] :

❋ ❋ ❋

وبعد فلقد أسهبت الحديث فى عقيدة التثليث لأنها هى التى دفعت الأحرار من المفكرين وأصحاب العقول السليمة أن يهاجموا الدين وأن يحثوا الناس

= وإنجيل لوقا ، وإنجيل يوحنا وهذا الانجيل الاخير صرح بألوهية المسيح تصريحا لا تأويل فيه — انظر محاضرات فى النصرانية للشيخ محمد أبو زهره .

(١) المسيحية نشأتها وتطورها لشارل جنيبر ترجمة د. عبد الحليم محمود صـ١٠٠ المكتبة العصريه ـ بيروت .

(٣) الفصل جـ ٢ صـ ٢ .

(٣) الجفوة بين العلم والدين ـ محمد على يوسف صـ ١٤ .

بالابتعاد عنه ، وأن يتركوه فى زاوية ضيقة فى الكنيسة ، وأن يخلعوا ثوبه وهم يواجهون حياتهم فى ضوء مصباح العلم ونور التجربة وحقيقة الواقع . بل إن عقيدة التثليث هى التى أوجدت هذه الجفوة المفتعلة بين العلم والدين[١] ، فجعلت أوربا تحمل أعلام العلمانية وتنفض عنها غبار هذه الخزعبلات المتمثلة فى مسيحية شاؤل أو مسيحية بولس .

ذلك أنه فى عصر التنوير ، وعصر النهضة كان على المثقف إذا أراد الإيمان بالمسيحية أن يلغى عقله ويسلس قياده لهواه وعاطفته ، حيث إن كل العوامل الفكرية تنأى به عن المسيحية . وإلا فكيف يقوده عقله إلى الإيمان بدين تعتور كتبه الشكوك وتضج صفحاته بالأباطيل والخرافات ؟

كيف يقوده العقل ـ فى عصر التنوير ـ عصر العقل ـ إلى دين يقر ما لا يقره العقل ، ويقول بما يتعارض مع الفكر ويختلف مع العلم الحديث ، وينطق بما لا يتفق مع الفطرة السليمة ؟

كيف يقوده العقل إلى الايمان بدين عقيدته مستوردة من غيره وعباداته لا تمت إليه بأدنى وشيجة ؟

كيف يقوده العقل بالايمان باللامعقول ؟

يقول الامام محمد عبده :

[إن الايمان بغير المعقول عند عامة المسيحية أصل الأصول لا يختلف فيه كاثوليك ، ولا أرثوذكس ، ولا بروتستانت ، وهو أن الايمان منحة لا دخل للعقل فيها ، وأن من الدين من هو فوق العقل بمعنى ما يناقض أحكام العقل ، وهو مع ذلك مما يجب الايمان به ، واستشهد بقول القديس أنسلم « يجب أن تعتقد أولا

---

(١) دين الكنيسة .

-بما يعرض على قلبك دون نظر ، ثم قال: والويل كل الويل لطالب الفهم إذا أدى إجتهاده إلى شيء يخالف ما تعلق به إيمانه][1] .

ومن هنا وجه أحرار الفكر سهامهم إلى تلك الأساطير التي لا يقرها عقل ولا تتفق مع فكر - كما قلنا - ووجهوا نقداً لاذعاً لدين الكنيسة وذلك عندما رأوا بولس أنه إستطاع أن يجعل من تلك الأساطير أساس المسيحية والعمود الفقري للكنيسة ، ولذلك فإن نيتشة يقول :

إن المسيحية هي دين الكلاب العرجاء[2] ، ولذا نظر الناس إليها نظر بغض وازدراء وكانت من أقوى الأسباب المباشره في ظهور العلمانية .

---

(١) انظر كتاب الاسلام والنصرانية طبعة المنار السادسة سنة١٣٦٣ للاستاذ الشيخ محمد عبده .

(٢) انظر تهافت العلمانية د.عماد الدين خليل - مؤسسة الرسالة عام ١٩٧٩م.

الإرهاب الكنسى

شاء الله أن تعبر المسيحية البحار إلى أوربا بكل سماحتها وكل طهرها وكل تجردها من المادة ، وهناك وجدت الرومان ورثة الحضارة الاغريقية المادية الوثنية ، كما وجدت أقواما فى أنحاء أوربا – حديثى العهد بالبربرية – يتناحرون بجموعهم الكثيفة على رقعة من الارض ضيقة ذات طبيعة قاسية وعرة ضنينة شحيحة ، لا يملك من يعيش فيها أن يذوق طعم الراحة فترة ، ولاأن يلقى سلاحه لحظة ، ولا أن يركن فى واقع الحياة ومعتركها إلى نظريات المسيحية السمحة الموغلة فى السماحة .

[من لطمك على خدك الايمن فحول له الخد الاخر] . ولم يجد قدوة حسنة من رجال الدين ولا عطفا منهم على المكدودين ، ولا نظما لسياسة الحكم وسياسة المال كى تستقر عليها شئونهم أو تسير على ضوئها حياتهم . فظن هؤلاء الاقوام أن الدين لا يصلح للحياة ، فقالوا : إن الدين صلة بين العبد وربه ، وأنه لا بأس عليهم أن يستظلوا بظله فى الكنيسه وأن يستروحوا نسماته فى الهيكل المقدس ، وأن يواجهوا صراع الحياة بعد ذلك فى المجتمع بتقاليدهم البربرية وأن يدعوا السيف يقضى بحكمه إبان همجيتهم ويدعوا القانون المدنى يقضى بحكمه بعد أن تحضروا .

ولذا فقد بقى الدين فى عزلته الوجدانية : هناك فى القلوب والضمائر والهيكل المقدس وكرسى الاعتراف .

ومن هنا كانت تلك العزلة بين الدولة وبين الدين وسدنة هذا الدين .
ولكن رجال الدين من القساوسة والكرادلة والبابوات نظروا مليا فأدركوا أنهم لا يستطيعون أن يضمنوا مصالحهم ولا أن يحافظوا على نفوذهم إذا بقى الدين

أو بعبارة أدق إذا بقيت الكنيسة فى عزلة من الحياة الإقتصادية والاجتماعية والسياسية . فلابد إذن أن تكون الكنيسة سلطة تقابل سلطة الملوك والأمراء بل وتعلو على سلطة الملوك والأمراء .

فقد تطلع رجال الدين إلى المجد الدنيوى وعشقوا السلطة والصولجان ، وأحبوا السيطرة والنفوذ . فدخلوا الحياة العامة لا لإصلاح الحياة العامة ، وإنما ليستفيدوا هم من الجماهير الجاهلة (١) .

وكانت الكنيسة فى العصور الوسطى تملك أجود الأراضى دون أن تدفع لها ثمنا لأنها موقوفة ـ على زعمها ـ لله ، وكانت تجبى الاعشار من الشعب لتمتلىء جيوب الأساقفة ورؤساء الاديرة ، ولما كان هؤلاء من أبناء رجال الاشراف جهلاء على الاكثر ، منهمكين فى ملذاتهم وشهواتهم ، منصرفين إلى خدمة الملك ، فقد ألقوا القيام بعبء أعمالهم الدينية على عاتق صغار القسس نظير أجور واهية ، بل أصبحوا يبيعون تلك الوظائف أحيانا فانحطت الوظائف الدينية فى نظر الناس (٢) .

وسيطر رجال الكنيسة سيطرة تامة على مقدرات الحياه وحكموها بأهوائهم وساد حكم الكنيسة حتى أن البابا « غريغوريوس السابع (٣) أعلن أن الكنيسة هى صاحبة السياده على العالم كله ، وأنها تستمد نفوذها من الله مباشره من غير حجاب وأنها معصومه لا تخطىء ولا تضل أبداً وأن الامبراطور ليس ـ كما يدعى ـ ظل الله فى الأرض لأنه إنما يعتمد على القوه الغاشمه .

---

(١) من العداله الاجتماعية . لسيد قطب ص٩ ـ ١٠ ، ومن المجتمع الاسلامى ص ٢٦ جـ ٣ طبعة رابعه ١٩٧٤ د/ أحمد شلبى مكتبة النهضه المصريه بتصرف .
(٢) انظر معالم تاريخ العصور الوسطى للاستاذ محمد رفعت وآخر .
(٣) عام ١٠٧٢ - ١٠٨٥ م .

وحدث أن البابا حرم الامبراطور « هنرى الرابع »[1] فاضطر هذا الامبراطور التعيس أن يقف بباب البابا ثلاثة أيام حافى القدمين عارى الرأس ، تحت الثلوج والأمطار ذليلا منكسرا يطلب عفوه ، ولم يسمح له البابا بالدخول إلا بعد شفاعة بعض الرجال وتاب على يديه فغفر له البابا زلته[2] . ثم هيمنت الكنيسة على كل ميادين البحث العلمى .

وفرضت عليه ماتراه حقاً مستندة فى ذلك إلى سلطة الكتاب المقدس المعصوم من كل خطأ — فى زعمها — وسرعان ما اتصل الدين بالظواهر الطبيعية ونحوها مما يدخل فى نطاق العلم والفلسفة .

وأصبحت الحقيقة العلمية هى التى تقوم على ظاهر نصوص الانجيل وتأويلها الحرفى كفيل بهداية الناس إلى وجه الحق فيما يبحثون .

وقد أدى هذا إلى القول : بدوران الشمس حول الأرض ، ورفض الاعتقاد بأن الجانب المواجه لموطننا من الأرض معمور بالخلائق .

وهكذا إرتد العصر الوسيط — بتسليط الكنيسة — إلى الأفكار البدائية فى العصور البربرية فكانت الأمراض الجسمانية تعزى إلى عوامل خفية أظهرها حقد الشيطان أو غضب الله .

وبينما كانت الكنيسة تربح من الأحجبة والتعاويذ ، كان الأطباء معرضين فى أكثر الأحوال للاتهام بالسحر والكفر معا .

لقد ساندت الكنيسة الجهل ووقفت فى وجه كل تقدم علمى ليبقى الشعب جاهلا يؤمن بخرافاتها .

---

(١) وذلك عام ١٠٧٦ — فى فناء قلعة كانوسا .

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ـ لأبى الحسن الندوى ـ طبعة عاشرة صـ ١٩٢ سنة ١٩٧٧ دار الأنصار . وانظر الاتجاهات الوطنية صـ ٢٥٤ .

فباسم الدين تحارب العلم والعلماء والمتعلمين ، وتعتبرهم ملحدين ، وقد تحرقهم وهم أحياء .

وكان سلاح الكنيسة الفتاك هو محاكم التفتيش الطاغية التى كان من أحكامها الحرمان والسجن والنفى والتعذيب الوحشى ، ولقد ذهب مائة ألف مسيحى بروتستانتى فى ليلة واحدة ، وبلغ ضحايا محاكم التفتيش فى خمسة قرون(١) ما يزيد على تسعة ملايين نسمة(٢)

---

(١) مؤامرة فصل الدين عن الدولة : الأستاذ محمد كاظم حبيب ص ٢٨ .

(١) إن المبدأ الذى اعتنقته محاكم التفتيش كان يقول :

لأن يدان مائة برىء زوراً وبهتانا ويعانون العذاب ألوان خير من أن يهرب من العقاب مذنب واحد . انظر قضية النزاع بين الدين والفلسفة ـ د/ توفيق الطويل ـ طبعة ثانية ـ مكتبة مصر .

صراع الفكر الأوربى

وهكذا دفعت الكنيسة الناس دفعاً إلى طريق العلمانية ، وجعلت الفكر الأوربى يصير متصارعاً فى مراحل متعددة : تحول فيها من سيطرة الدين أو بعبارة أدق من سيطرة الكنيسة إلى سيطرة العقل ، أو الإيمان المطلق بالعقل ، إلى الايمان بالحس بالعلم والتجربة وعبادة المادة .

ويبين العقاد(١) مراحل الفكر الأوربى التى مر بها حتى ظهور العلمانية وذلك بوضوح إذ يقول :

إن الحضارة الغربية تحولت منذ القرن السابع عشر من الشك فى الدين إلى الشك فى العقل إلى الشك فى العلم الحديث ، وإنها الآن تدخل فى أبواب جديدة من الشكوك :.

وربما كان الأصح أن يقال : إن الحضارة الغربية بدأت بالشك فى السلطة الدينية لا فى الدين نفسه ، وإن الدين الذى شككت فيه أو أنكرته كان هو الدين كما تشبث به الجامدون المتحجرون على التقاليد أو على العرف المقرر من عهود الجهل والطغيان .

وقد تزعزعت سلطة رجال الدين يوم تزعزعت كل سلطة ، فشك الناس وأنكروا وثاروا على التقاليد وعلى العرف المحفوظ ، ثم أذنوا لعقولهم أن

---

(١) عقائد المفكرين فى القرن العشرين ـ طبعه ثالثه ـ بيروت سنة ١٩٧١ ـ دار الكتاب العربى ـ عباس محمود العقاد ص ٣٣ ـ ٣٤ .

تفكر وتقدر ، واعتمدوا على العقل وحده فى فهم جميع الأمور وبخاصة ماكان فهمه مقصوراً على دعوى ذوى السلطان من أصحاب الدنيا والدين .

إنتقل ذوو الرأى من الإيمان بالدين إلى الإيمان بالعقل ، حتى إنتهى بهم العقل عند حدوده ، فتحولوا من الايمان بالعقل إلى الايمان بالعلم الحديث ، وليس الايمان بالعقل والايمان بالعلم شيئا واحداً كما يلوح من النظرة العاجلة ، لأن الناس آمنوا بالعقل وحسبوا أنهم يفهمون به كل شيء من طريق المنطق والقياس ومن طريق القضايا والبراهين ، فلما اختلطت عليهم الأمور وقصر بهم العقل دون العلم بالمحسوسات فضلا عن المغيبات تحولوا إلى التجربه الحسية ووقفو عليها جهود العلم الحديث فلا علم بغير سند من الحس والتجريب .

ويذهب الفيلسوف الفرنسى « أوجست كونت » الذى نشأ فى النصف الأول من القرن التاسع عشر إلى أن تطور الفكر الانسانى ينقسم إلى ثلاث مراحل :

الأولى : المرحلة اللاهوتية وهى التى فسرت الأحداث فيها باسم الإله .

والثانية : المرحلة الميتافيزيقية وفيها فسر الإنسان الأحداث باسم عناصر خارجية لايعلمها ولكنه لايذكر إسم الإله .

والثالثة : المرحلة الوضعية التى أخذ الانسان يفسر فيها الأحداث باعتبارها عناصر خاضعة لقوانين عامة يمكن إدراكها بالمطالعة أو بالمشاهدة العلمية ، وهذه المرحلة لا تذكر الأرواح والآلهة والقوى المطلقة[١] .

---

(١) انظر الاسلام يتحدى ص ٢٥-٢٦ وحيدالدين خان- طبعه ثانيه ١٩٧٣ دار البحوث العلمية .

ويقول الدكتور محمد البهى :

مضت على التفكير الاوربى منذ القرن الرابع عشر إلى الآن مراحل شهدت فيها العقلية الأوربية صراعاً فكريا واتجاهات عقلية مختلفة تدور حول تبرير مصادر المعرفة التى عرفتها البشرية فى تاريخها حتى الوقت الحاضر : وهى الدين والعقل والحس أو الواقع[1] .

ومهما يكن من شيء فإن أحداً لا يستطيع أن ينكر سيطرة الدين سيطرة تامة على مقدرات الإنسان على كل كبيرة وصغيرة من أمور دينه ودنياه — فى هذه الفترة الحالكة من حياة أوربا ، تلك التى وضع فيها رجال الدين مقاليد الامور كلها فى يدهم .

فكانت سيادة الدين على الحياة طوال العصر الوسيط حيث كان عصر إيمان ويقين ، وكان العقل أو الفلسفة والفكر فى خدمة هذا الدين حيث يدور العقل فى رحابه ولا يخرج عن مداره ، فكان العقل فى هذه الفترة يعيش فى خمول وركود .

ومن هنا كان إنسجام العقل مع الايمان دون إشارة أدنى بارقة من الضيق أو القلق .

يقول أبو ريان :

وقد كانت عقائد الدين فى القرون الوسطى موضوع تسليم يقينى عند المفكر المسيحى .

---

(١) الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ص ٢٧٩ .

ولذا إنحصر دور الفلسفة فى الغالب فى شرح مضامين هذه العقائد وإقامة الحجج والبراهين على صحتها فى نطاق قدرة العقل الانسانى الذى يعجز — فى نظر المسيحية — عن تفسير حقيقة الاسرار المقدسة .

وعلى هـذا فقد كانت الفلسفة خادمة الدين ، ومجرد أسلوب للاقناع العقلى(١) .

ويقول صاحب كتاب « الفلسفة أنواعها ومشكلاتها »(٢) :

فى الجزء الاكبر من القرون الوسطى كانت العلاقة الرسمية بين الفلسفة والدين تتلخص فى أن للفيلسوف الحرية فى الوصول إلى أية نتائج قد يوحى بها تفكيره — شريطة ألا تكون هذه النتائج متعارضة مع نتائج الوحى واللاهوت المقدس . ويقول :

إن الكنيسة — فى فرعيها الكاثوليكى والبروتستانتى معاً — لم تكن على إستعداد خلال الجزء الاكبر من تاريخها الطويل للسماح للفكر النظرى بالتنقل بحرية فى جميع أنحاء عالم الفكر ، ذلك لأن الكنيسة كانت عادة تبدى رغبتها فى أن تقوم هى على الأقل بإصدار جوازات السفر التى تبيح القيام بأمثال هذه الرحلات . وبذلك تحتفظ لنفسها بسلطة البت فيمن يسمح له بالسفر الفلسفى .

---

(١) تاريخ الفكر الفلسفى « الفلسفة الحديثة » د/ محمد على أبو ريان ص١١ .
(٢) هنترميد — ترجمة د/ فؤاد زكريا ص٣٧ - طبعه ثانيه ١٩٧٥م مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر .

ويقول الدكتور البهى :

وفى عهد سيادة الدين — كمصدر للمعرفة — سواء فى عصر سلطة الكنيسة الكاثوليكية أو فى عهد الإصلاح الدينى لوثر — نظر إلى الكتاب المقدس وهو الانجيل على أنه فوق العقل على معنى أن العقل أن يبحث ويرى — إن جاز له أن يبحث ويرى — ولكن الكتاب المقدس الكلمة الأخيرة فيما يرى العقل ويحكم[1] .

---

(١) الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى .

آراء الكنيسة

خلال الفترة الطويلة الحالكة التى سيطرت فيها الكنيسة على مقدرات الحياة الأوربية ـ ضمت تحت أرديتها بعض الأفكار والآراء المختلفة المتنوعة فى علوم شتى ، آمنت بها واعتقدت صدقها ، وحرصت ـ كل الحرص ـ على السير بمقتضاها والتمسك بها ، ثم راحت تؤيدها بأدلة من الكتاب المقدس وتقدمها للناس فى هالة من الإجلال والاحترام والإكبار والتقديس وعلى أنها الحق الذى لا مرية فيه فلا شك يتطرق إليها أو يقترب من ساحتها .

وأخذت تفرض على الناس الإيمان بهذه الآراء الكنسية وتجبرهم على الأخذ بها والحفاظ عليها والسير تحت ظلالها وارتداء أثوابها ، وتحذرهم من التمرد عليها أو خلع قيودها أو الخروج على تعاليمها .

واعتبرت الكنيسة كل من ينفض عن كاهله غبار الجهل المفروض عليه ، أو يخرج من دائرة ظلامه ـ هرطقة والمرطقه ـ حسب تفسير الكنيسة آنذاك ـ هى مخالفة رأيها .

فرأى يراه عالم فى العلوم الكونية هرطقة . ومحاولة فهم الكتاب المقدس لرجل غير كنسى هرطقة ، وانتقاد شيء يتصل بالكنيسة هرطقة ، ومساعدة واحد من هؤلاء أو الرضا عنه أو عن اتجاهه هرطقة (١) .

وقد أخذت الكنيسة الناس بالقوة والعنف ، فإن جهر رجل من رجال الدين بالدعوة إلى الاصلاح ، داعياً رجال الكنيسة إلى أخذ الناس بالرفق والرحمة ، وحاثا

---

(١) ص ٢٥٦ المسيحية د / أحمد شلبى .

رجال الدين على الأخذ بهديه وعلى تحقيق عدله ، كان عقابه الحرمان والقتل -

يقول أبو الحسن الندوى .

من أعظم أخطاء رجال الدين فى أوروبا ومن أكبر جناياتهم على أنفسهم وعلى الدين الذى كانوا يمثلونه - أنهم دسوا فى كتبهم الدينية المقدسة معلومات بشرية ومسلمات عصرية عن التاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية ، ربما كانت أقصى ما وصل إليه العلم الانسانى فى ذلك العصر ثم يقول :

ولعلهم فعلوا ذلك بنية حسنة ، ولكنه كان أكبر جناية على أنفسهم وعلى الدين فإن ذلك كان سبباً للكفاح المشؤوم بين الدين والعلم الذى انهزم فيه ذلك الدين المختلط بعلم البشر هزيمة منكرة ، وسقط رجال الدين سقوطا لم ينهضوا بعده . وشر من ذلك كله وأشأم ، أن أوروبا أصبحت لا دينية [١] .

فقد إستيقظ العقل الأوروبى من غفلته الطويلة وهب من نومته العميقة، وأخذ يبحث فيما حوله ، واتجه إلى الطبيعة يستكنه أسرارها ويكشف قوانينها . ووقف على نتائج أبحاث العلوم الكونية والطبيعية وأدرك أنه كان يعيش فى وهم كبير حين خضع لآراء الكنيسة . وعلم أن آراءها أوهام وخرفات يجب نبذها إلى الأبد . واعتقد أن دينها مخدر للفكر معطل للعقل يجب القضاء عليه أو على الأقل البعد عنه . وهنا بدأ العقل أول خطواته فى طريق العلمانية .

وإليكم بعض آراء الكنيسة التى زعمت قداستها وحملت الناس عليها .

---

(١) انظر ص ١٩٣ : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين : أبو الحسن الندوى طبعة عاشرة ١٩٧٧ م دار الأنصار .

لقد إعتقدت الكنيسة فى رأى أرسطو رب العلم فى العصر المدرسى . وأخذت برأى بطليموس[٢] رب الفلك طوال العصور الوسطى . إذ قرر الاول [١] أن الارض من تراب ولذا فهى ساكنة فى مركز الكون ودوران الشمس وسائر الكواكب حولها (فالارض ساكنة وقبة السماء تتحرك حولها حاملة معها النجوم والشموس) .

ورأى بطليموس هذا يتفق - فى زعمهم - مع ظاهرة التوراة ويساير روحها . وقد دعم هذا الرأى « توما الاكوينى[٣] » وروجه شاعر المسيحية « دانتى » وغيره ممن استغلوا للفكرة فى تبيان العلاقة بين الله والبشر .

لقد اعتقد رجال الكنيسة فى هذا الرأى وأهملوا غيره من الآراء[٤] فقد كانوا - على حد تعبير العقاد - يحتمون أن تجمد الارض هنالك لتتحقق الحكمة من خلق الاحياء على التعميم وخلق الانسان على التخصيص . وقد كانوا يشترطون للإيمان بالقصد والتدبير فى خلق الحياة على الارض أن تكون الارض مميزة بين العوالم العلوية والسفلية وكانوا يحسبون أنها لا تكون مميزة على هذا الشرط إلا إذا قامت فى مركز الكون كله . وكانت الكواكب والشموس دائرة أو ثابتة حولها . وقد كان قيام الارض فى مركز الكون - فى نظرهم - هو الدليل الوحيد على حكمة القصد والتدبير .

وإننا نعجب من إصرار رجال الكنيسة على هذا الرأى وربط عملية الخلق بوضع معين للكون . وأنه على حد تعبير العقاد أيضاً - ليس فى الاديان الكتابية

---

(١) منذ القرن الرابع قبل الميلاد .
(٢) فى القرن الثانى الميلادى .
(٣) فى مؤلفه : الخلاصة اللاهوتيه .
(٤) وذلك مثل رأى قدماء الفيثاغورية المعتاد .

عقيدة توجب على الانسان أن يؤمن بجمود الأرض فى مكانها ودوران الأفلاك من حولها ـ وليس فى الاديان الكبرى قاطبة حكم من الاحكام يعلق مقاصد الحكمة على وضع من أوضاع الفلك [١] .

ولقد إعتمدت الكنيسة كذلك مذهب أرسطو فى الفلسفة وأقرت تفسير الدين على وفق هذه الفلسفة بما فيها الميتافيزيقا والطبيعة . واعتمدت منهجه فى البحث وهو منهج القياس المنطقى واقتنعت بأن هذا المنهج يصلح للبحث فى كل شىء حتى فى الدين .

إن المذهب العقلى التقليدى الذى اعتمدته الكنيسة ـ كان يتخذ القياس الارسطى منهجاً للتفكير واعتبرته الاساس الصالح لنيل المعرفة على أساس أن العقل ملكة سامية لا تخضع للتجارب وهو فطرى يستطيع أن يصل إلى الحقيقة المطلقة . وأنه هو السبيل للوصول إليها وأن المعرفة على هذا الاساس هى مطابقة العقل العارف للموضوع المعروف وأن هذه المعرفة يقينيه لا شك فيها [٢] .

ولقد آمنت الكنيسة بالرأى القائل بأن الجانب المواجه لموطننا من الارض غير معمور بحجة أن التوراة ـ فيما يرى القديس أوغسطين [٣] ـ لا تشير إلى مثل هذه السلالة الادمية . وكيف يأذن الله بوجودها فى هذه البقاع التى لا يتيسر

---

(١) أنظر ص ٤١ ـ ٤٤ من عقائد المفكرين فى القرن العشرين وص ١٦٣ من قصة النزاع بين الدين والفلسفة د / توفيق الطويل طبعه ثانية وص ٩٣ من نشأة الفلسفة العلمية ـ زيشنباخ ـ ترجمة فؤاد زكريا ـ دار الكتاب العربى سنة ١٩٦٧ م وص ٣٧ من الفكر المادى الحديث وموقف الاسلام منه . د / محمود عثمان ـ مكتبة الانجلو المصرية .

(٢) ص ٦٣ المعرفة عند مفكرى المسلمين ، د / محمد غلاب

(٣) عام ٤٣٠ م .

لأهلها رؤية المسيح حين يعود فيهبط من السماء إلى الأرض ؟ . إن التبشير بالإنجيل لم يبلغ هذه البقاع التى يزعم البعض أنها معمورة .

وإذ قال بهذا القديس أوغسطين فقد أنصتت الكنيسة والعالم المسيحى من ورائها واعتنقت رأيه ديناً حيث استقر عشرة قرون من الزمان [١] .

هذا بعض الآراء التى تمسك بها رجال الكنيسة وصبغوها بالصبغة الدينية وعدوها من تعاليم الدين وأصوله يجب الاعتقاد بها ، وعضوا عليها بالنواجز ، وكفروا كل من يخالفها أو يتفلت من عقالها . وقاوموا كل تقدم فى علم أو فكر .

وقد تحمل العلماء كل الآلام من أجل تقدم العلم والرقى بالفكر والتقدم .

يقول موريس بوكاى :

علينا أن نعترف بأن العلماء قد لاقوا مصاعب جمة من السلطات الدينية لبعض الأديان . ففى الوسط المسيحى وعبر قرون كثيرة بادرت سلطات مسئولة ودون الاعتماد على أى نصوص حقيقية للكتب المقدسة بمعارضة تطور العلوم .

اتخذت هذه السلطات ضد العلماء الذين كانوا يحاولون تطوير العلوم الاجراءات التى نعرفها . تلك التى دفعت بعض العلماء إلى المنفى تلافياً للموت حرقا . أو إلى طلب المغفرة بتعديل مواقفهم وبالتماس العفو [٢] .

إن كثيرين منهم ذهبوا ضحية ما أسدوا للانسانية من خدمات . ومن هنا فلابد من إكبارهم وتقدير ذكراهم . لأنهم كانوا يعلمون ـ مثل غيرهم ـ أن مسايرة التيار الخاطىء أجلب للمنافع الشخصية . وإن كان فيه خيانة للجماهير . وأن

---

(١) ص ١٦٧ من قصة النزاع بين الدين والفلسفة ، د / توفيق الطويل .
(٢) ص ١٤٠ من القرآن والتوراة والانجيل والعلم موريس بوكاى .

معارضة التيار أجلب للمتاعب . ولكنها تنطوى على الاخلاص لمستقبل الجماهير والانسانية . فإذا كانوا - برغم ذلك كله - قد آثروا الاخلاص على الخيانة واختاروا المتاعب على المنافع . فما أجدرهم بالعرفان . وما أجدر ذكراهم بالاعزاز ولعلهم لا يطلبون منا إلا أن تمتلىء قلوبنا بالتسامح : وتتعلق بحرية الفكر حتى يظهر كل فكر جديد فتواصل الانسانية به تقدماً (فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض [١]) .

---

(١) سورة الرعد : ١٧ .

موقف أحرار المفكرين من آراء الكنيسة

استيقظ العقل الأوربي من سباته الطويل وراح يخلع عنه ثوب الجمود وينفض عنه غبار الجهل المتراكم عليه عبر القرون والاجيال، وأخذ يبحث فيما حوله ويلتمس الارشاد فى آداب اليونان والرومان وفى فلسفتهم. فأوجد المذهب الانسانى الذى أنشأ جواً عقليا مكن الفكر من الانطلاق فى بداية عصر النهضة. ويسر للمعرفة أن تتقدم فى خطوات جريئة إلى الامام. واتجه العقل الاوربى إلى الظواهر الطبيعية يبحث عن أسرارها ويستكشف قوانينها ويقف على حقائقها بعيداً عن سيطرة الدين ورجاله. وحينئذ بدأ عصر الملاحظة والتجربة وإستخدام الاستدلالات التجريبية ليكون – كل هذا – إعداداً لصياغة المنهج الجديد – منهج التجربة والملاحظة – الذى يعد بالفعل ثورة على الدين وعلى المفاهيم المدرسية المتعارفة.

وعندما وقف العقل على نتائج أبحاث العلوم الكونية والطبيعية أدرك أنه عاش دهراً طويلا فى رق الجمود والتخلف. وأنه كان أسير أساطير وخرافات. يجب نبذها إلى الابد. واعتقد – بعد معاناة من الكنيسة – أن الدين مخدر للعقل. مقيد للنظر. معطل للفكر ويجب القضاء عليه. أو على الاقل البعد عنه وعن دائرته الضيقة وماكان للعقل الاوربى أن يفعل ذلك لولا إطلالة هالة من نور حملها بعض نفر من الاوربيين شاهدوا نور الله فى الاسلام وتتلمذوا على أساتذة من المسلمين فى جامعات الاندلس وصقلية وغيرها. وعلموا من خلال دراساتهم أنه لا سلطان لاحد من رجال الدين على القلب. وأن لا وساطة بين الله والعبد. وأقروا أن المسلمين كانوا أساتذتهم فى إكتشاف وحدة قوانين الكون وأهمية التجريب للتأكد من صحة الحقائق العلمية. وفى إيجاد علم التاريخ وضوابطه

وأسانيده ، وعلوم اللغة وأوزان الشعر وفى الطب والفلك والجبر وعلم الضوء .

فقد أخذ المسلمون من العالم اليونانى المعرفه الرياضية والطبيعية التى إحتقرها الرومانيون ونبذها المسيحيون جانبا - وراحوا يعملون بصبر وجهد فى ذلك الطريق الذى إزدرأه الاغريق فى أوج عظمتهم ، تابعين طريق التدرج البطىء والتكيف العملى ، وبنوا فى القرن العاشر فى أسبانيا حضارة لم يكن العلم فيها مجرد براعة فحسب . بل كان علما طبق على الفنون والصناعات الضروريه للحياة العملية . وعلى الإجمال كان العرب يمثلون فى القرون الوسطى التفكير العلمى والحياة الصناعية العملية [١]

يقول « لين بون » فى كتابه « العرب فى أسبانيا » .

فكانت أوربا الأمية تزخر بالجهل والحرمان . بينما كانت الاندلس تحمل إمامة العلم وراية الثقافة فى العالم .

وينقل الاستاذ جوستاف ليبون عن ليبرى قوله :

لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربا الحديثة عدة قرون .

ويقول سيدبلوت فى كتابه « تاريخ العرب » :

كان المسلمون فى القرون الوسطى منفردين فى العلم والفلسفة والفنون وقد نشروها أينما حلت أقدامهم وتسربت عنهم إلى أوربا . فكانوا سببا لنهضتها وارتقائها [٢] .

---

(١) من تكوين العقل الحديث ص ٣٣١ - ٣٣٢ . جون هرمان لاندال ترجمة جورج طعمة . ط ثانية . بيروت . دار الثقافة ١٩٦٦ م .

(٢) نقلا عن عبد الله علوان فى تربية الاولاد فى الإسلام ص ٧ ج ١ ط ثالثة دار السلام .

ويقول موريس بوكاى :

والكم نحن مدينون الثقافة العربية فى الرياضات : فالجبر عربى وعلم الفلك والفيزياء (البصريات) والجيولوجيا وعلم النبات والطب « ابن سينا » إلى غير ذلك .

لقد اتخذ العلم لأول مرة صفة عالمية فى جامعات العصر الوسيط الاسلامية[١]

ومن هنا فقد توصل أحرار المفكرين الاوربيين بالبحث العلمى إلى آراء تناقض آراء الكنيسة تماما .

وكان كشف « كوبرنيكس » لمركز الارض من المنظومة الشمسية صدمة عنيفة للذين إعتقدوا أن الارض مركز الكون وأن السماوات العليا وما فيها من كواكب وشموس تبع للأرض مركز الكون كله ومقر الانسان ولما عرفوا أن الارض لاتعدوا أن تكون نجما صغيراً تابعا للشمس ، فزعوا من هوان الارض كلها وهوان الانسان كله ، وخامرهم الشك فى حكمة القصد والاختيار ورجحت عندهم ظنون المصادفة والاتفاق [٢] .

وجاء جاليليو فأثبت أن الشمس ـ لا الأرض ـ مركز الكون وأنها تدور حول محورها وليس حول الأرض ، وأن الأرض تدور دورة مزدوجة حول نفسها — كل أربع وعشرين ساعة — وحول محورها فى الوقت نفسه كل عام مرة . كما اخترع جاليلو « المقرب » [٣] وهو يدنى البعيد فنراه وكأنه على كثب منك . وبه كشف أقمار المشترى [٤] . فرفض خصوم العلم النظر إليه بحجة أن إستخدامه يوقع فى الكفر وأن ما يبدو خلاله ليس إلا أوهاما يوسوس بها الشيطان

---

(١) ص ١٤١ : القرآن والإنجيل والتوراة .

(١) ص ٣٧ : العقائد وعقائد المفكرين فى القرن العشرين .

(٣) (التلسكوب) .

(٤) عام ١٦١٠ م .

الخناس فضى جاليليو فى تجاربه حتى أيد رأى « برونو » فى أن القمر كعالم الأرض من حيث إنطواؤه على جبال ووديان ، ورد نوره إلى إنعكاس الشمس على أديمه . فقال خصوم العلم إن (سفر التكوين) لا يؤيد هذا الزعم ، وأن القمر أجل من أن يحتمل حفر الوهاد ، وإقامة الجبال . . إن هذا لضلال مبين [١] .

وجاء « ديكارت » وكان أول من هاجم المفاهيم الأرسطية وأول من وجه إليها نقداً عنيفا .أدى فيما بعد ذلك إلى إنكار الميتافيزيقيا بالكلية . يقول الدكتور محمد غلاب :

وديكارت هو الذى صوب السهم الأول فى مهاجمة مذهب المفاهيم الارسطية . ولم يحتفظ من الميتافيزيقا إلا بالطبائع الحقيقية الثابتة التى تدع نفسها تدرك بالحواس [٢] .

وتوضيح ذلك : أن ديكارت رفض منطق أرسطو والمفاهيم الارسطية أيضا . ولم يحتفظ منها إلا بأشياء قليلة يعتبرها حقائق ضرورية وجعل العقل هو القياس الوحيد للحقيقة . وسوغ العلم الآلى تسويغا فلسفيا . فكن للفردية وللعلم الآلى الذين كانا سمه عصر النهضة وهو يظن أنه يقيم فلسفة تسوغ الدين المسيحى بغير ما تسوغه به فلسفة أرسطو . فكان أن هدم الميتافيزيقا القديمة . وأنتجت الميتافيزيقا التى أنشأها هو نتائج خطيرة فكان منها أن هدمت الميتافيزيقا بالكلية وخاصة بعد محاولة « كانت » وقوله بالنسبية .

وعصر ديكارت كانت تسوده نزعتان أساسيتان وهما الفردية العنيفة التى

---

(١) ص ٢٠٢ قصة النزاع بين الدين والفلسفة د / الطويل .

(٢) ص ١٤٤ المعرفة عند مفكرى المسلمين الدار المصرية للتأليف والترجمة سنة ١٩٦٧ للدكتور محمد غلاب .

تعتبر العقل الفردى مقياس كل شىء والنزعة الثانية هى نزعة العلم الآلى وكان العصر يحس بهما إحساسا ولا يستطيع تسويغهما . فجاء ديكارت وسوغهما تسويغا فلسفيا فبجعله العقل الإنسانى مقياس كل شىء جعل الفردية قائمة على مسوغ معقول . بعد أن كانت تمرداً وعصيانا .

وساهم فى العلم الآلى مساهمة فعالة وأنشأ له فلسفة تحميه بعد أن كان إحساسا ليس له ما يسوغه .

وانتشرت فلسفة ديكارت هذه فى أوربا كلها فى حياته . وأما بعد مماته فكانت هى الشاغل للاوربيين وهم بين متتلمذ عليه ومدافع عنه ومعارض له . واختلفت أسباب المعارضة .

والمهم أنها شغلت أوربا كلها فى هذا العصر [١] .

ثم وجه « فرنسيس بيكون [٢] » ضربة قاصمة للفكر الارسطى — فكر الكنيسة الرسمى — فقد كان يرى أن المعرفة تبدأ بالتجربة الحسية التى تعمل على إثرائها بالملاحظات الدقيقة والتجارب العملية ثم يأتى دور إستخراج النتائج منها وعلى مهل ، ولا يكفى عدد قليل من الملاحظات لإصدار الاحكام . وقد دفع به هذا الموقف إلى نقد المدرسين والقدماء لاكتفائهم بالتأمل النظرى حول الطبيعة دون أن يعنوا بملاحظة ظواهرها ومن ثم فإن التفكير الحق — فى نظره — يجب أن يقوم على أساس من العلم ويستمد من نتائجه القائمة على الملاحظة والتجربة . فيجب على العالم الطبيعى إذن إحترام الواقع الحسى إلى جانب الذهن فى تخطيطه الطبيعة .

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة يوسف كرم ص ٧٥ وما بعدها وانظر ص ١٧٥ من جهود المفكرين المسلمين المحدثين فى مقاومة التيار الإلحادى د / محمود عثمان — مكتبة المعارض بالرياض ١٩٧١ م

(٢) فى عام ١٥٦١ — ١٦٢٦ م

وهذه هى أسس النظرية الجديدة التى إستند إليها (بيكون) فى دعوته إلى ضرورة إصلاح المنطق الصورى الارسطى وتعديله والاستعاضة عنه بمنطق جديد يمهد السبيل أمام الإنسان كى يستطيع بواسطته الكشف عن ظواهر الطبيعة والسيطرة عليها ، أى أنه يريد أن يستبدل منهج البرهان القياسى بمنهج الكشف الاستقرائى .

وسرعان ما جاء كتابه «المنطق الجديد» حاملا لهذه النظرية وقد بين «بيكون» أخطاء الفكر فى العصور الوسطى وحذر من الوقوع فيها ، وميز بين أربعة أنواع من الاخطاء التى تعوق تقدم المعرفة وتقف حجر عثرة فى سبيل الكشف العلمى أسماها (بالأصنام أو الأوهام [١]) كما بين أن الإنسان فى العصر الحديث ورث أفكار القدماء وتصورهم عن الطبيعة المستندة إلى الخيال أو اللاهوت ، والعارية تماماً عن الملاحظة والتجربة . ورأى أن العلم يجب فصله عن الدين وعدم إقامة العلم الطبيعى على أساس من النصوص الدينية وبهذا نجح (بيكون) فى تحرير الفلسفة والعلم من الدين وقضاياه ، ففصل العلم عن الدين وابتعد عن ثرثرة الجدل الأرسطى فى العصر المدرسى [٢] .

وجاء إسحاق نيوتن [٣] ، وتمكن بقوة ملاحظته ونفاذ بصيرته ووقدة ذكائه من أن يكشف أسرار الجاذبية بين الأجرام السماوية — بعد سقوط التفاحة أمامه فيما يقال — فانتهى إلى أن الاجرام يجذب بعضها بعضاً بنسبة أحجامها طرداً وبنسبة مربع المسافة بينهما عكساً .

---

(١) وهى أصنام القبيلة — أصنام الكهف — أصنام السوق — أصنام المسرح

(٢) ص ٤٣ وما بعدها د / أبوريان — الفلسفة الحديثة . بتصرف .

(٣) ولد عام ١٦٤٢ م وقيل فيه أن الطبيعة كانت فى ظلام دامس فقال الله : ليكن نيوتن فشاع النور فى كل جوانبها . ومع هذا ذاق مرارة الكنيسة .

وهوجم القانون وصاحبه ، وقيل عن هذا القانون أنه يستبدل بعناية الله قوة الجاذبية ، وأنه أنزل رب الخلق عن عرشه وسلبه عمله المباشر فى خلق الكون على نحو ما تقرر الكتب المقدسة . وبهذا فإنه ناقض صريح النصوص المقدسة وزعم (جون هاتشنسون [١]) أن مبادىء نيوتن تفضى بمن إعتنقها إلى إنكار وجود الله [٢] .

وكانت الضربة الكبرى التى قصمت ظهور رجال الكنيسة واللطمة العنيفة التى أفقدتهم صوابهم تلك التى وجهها دراون فى (نظرية التطور) .

كان رجال اللاهوت قد قالوا بثبوت الأنواع حيث لازمت صورها التى نشأت عليها منذ أوجدها الله . ومع هذا فهناك فكرة أخرى تقدر أن الكائنات الحية قد نشأت على نحو تطورى مطرد . بل إن بعضاً من أقدم المفكرين اليونانيين لم يكتفوا بالاعتقاد بأن التغير هو الحقيقة النهائية فى الكون — ومنهم على سبيل المثال (هرقليطس) — بل لقد نظروا إلى مجرى الحياة على أنه عملية متدرجة يستعاض فيها عن الأشكال الناقصة بأشكال أكثر منها كمالا (ومنهم إنبادقليس مثلا)

وبحلول عصر أرسطو طرحت الفكرة القائلة أن الأكثر كمالا لا يمكن أن يتطور من الأقل كمالا .

وفى عصر النهضة بعثت من جديد الفكرة القائلة بإمكان وجود نوع من النمو المتدرج على الرغم من أن الفلاسفة — لا العلماء الرواد — هم الذين أبقوا شعلة فكرة التطور متوهجة ، فقد ألقى (بيكون) و (ديكارت) و (إليتس) و (كانت) أفكاراً كانت بمثابة الوقود فى هذه النار .

---

(١) فى كتابه (مبادىء موسى) الذى نشر عام ١٧٢٤ م

(٢) قصة النزاع بين الدين والفلسفة : د / توفيق الطويل .

وخلال ذلك كان العلماء يجمعون ببطء تلك الوقائع التى زودت (دارون) وغيره من مفكرى القرن التاسع عشر فى الوقت المناسب بأساس يكفى لجعل فرض التطور أكثر من ألعوبه فلسفية [١] .

أجل جاء درون وصاغ فكرة التطور أو فرض التطور صياغة علمية بعد قراءته لنظرية (مالتوس) الاقتصادية . إنه يقول :

فى أكتوبر ١٨٣٨ م تصادف أن قرأت على سبيل التسلية كتاب (مالتوس) فى السكان ، ولما كانت ملاحظاته الطويلة المستمرة لعادات الحيوانات والنباتات قد هيأت ذهنى لتقدير أهمية الصراع من أجل الوجود ، وهو الصراع الذى يدور فى كل مكان ، فقد تبادر إلى ذهنى على الفور أن من الممكن فى ظل هذه الظروف أن تحفظ التغيرات المواتيه ويقضى على التغيرات غير المواتية فتكون نتيجة لذلك تكوين نوع جديد . وهنا أصبحت لدى نظرية أستطيع أن أبدأ العمل بها [٢] .

(وقضى (دارون) بعد ذلك واحداً وعشرين عاماً يجمع الأدلة البيولوجيه لتأييد فرضه ، وأخيراً ظهر فى عام ١٨٥٩ م كتاب (أصل الأنواع) وفيه يبين دارون نظريته فيقول :

لا يمر بى خلجة من الشك فى أن ما كنت أقطع به — كما قطع الطبيعيون — من القول : بأن كل نوع من الأنواع قد خلق مستقلا بذاته خطأ محض .

وإنى اليوم على تمام الاعتقاد بأن الأنواع دائرة التغاير . وأن الأنواع التى نعتبرها من توابع الاجناس هى أعقاب متسلسلة عن أنواع طواها الانقراض

---

(١) ص ١٠٧ ونترميد : الفلسفة أنواعها ومشكلاتها — ترجمة الدكتور / فؤاد زكريا .

(٢) تاريخ العلم للسير وليام دامبير . نقلا عن المصدر السابق ص ١٠٩ .

وعلى الاعتبار ذاته تكون كل التنوعات التابعة لنوع ما . أعقابا متسلسلة عن ذلك النوع .

وإنى فوق ذلك لشديد الاقتناع أن الانتخاب الطبيعى هو السبب الاكبر والمهيء الاقوى لحدوث التغايرات . ولم يكن السبب الاوحد الذى تفرد بإبرازها إلى عالم الوجود [١] .

---

(١) ص ٧٢ ج ١ أصل الانواع طبعة ثانية سنة ١٩٢٨ لشارلز دارون ترجمة إسماعيل مظهر .

موقف الكنيسة من نظرية التطور

لقد كان كتاب أصل الأنواع إزاء عالم اللاهوت كمثل عراث جامح صادف قرية من قرى النمل فشتت جموعها وأحال هدوءها فرقا وفزعا ، وأعلن رجال اللاهوت : أن مبدأ الانتخاب الطبيعي يتعارض مع كلمة الله كل التعارض ، لأنه يناقض العلاقة بين الخليقة وبين الخالق كما قرره الوحي[1] .

كما وصف بأنه فلسفة وحشية تقرر عدم وجود إله وتصرح بأن القرد أبونا آدم[2] ، وأن مذهب دارون محاولة يراد بها إنزال الله عن عرشه .

وقال ثقة من رجال اللاهوت :

إذا صح مذهب دارون كذب « سفر التكوين » وتحطم كيان الحياة وكان وحي الله إلى الإنسان – كما يعرفه المسيحيون – هذيانا وأحبولة[3] .

لقد فزعت الكنيسة لأن نظرية دارون ذات إيحاء قوي بحيوانية الإنسان .

يقول جوليان هكسلي في كتابه « الإنسان في العالم الحديث »[4] – وهو من علماء الداروانية الحديثة – وبعد نظرية دارون لم يعد الانسان يستطيع تجنب إعتبار نفسه حيوانا .

---

(١) أسقف وليرفورس .

(٢) الكردينال مانتج .

(٣) قصة النزاع بين الدين والفلسفة . د/ الطويل ص ٢٥١ – ٢٥٢ .

(٤) ترجمة حسن خطاب وراجعه عبدالحليم منتصر – نقلا عن التطور والثبات محمد قطب – دار الشروق طبعة رابعة ١٩٨٠ .

لقد كان دارون بطل هذا الانقلاب التاريخى حين قرر حيوانية الانسان ، فنفى عنه تلك النفحة الالهية التى رفعته عن مستوى الحيوان ، وهبط به إلى الأرض لا يحلق ولا يسمو إلى الملكوت الأعلى .

كذلك أفزع الكنيسة من نظرية دارون أن من ورائها فلسفة مادية بحتة لا تتيح مجالا لأى شىء خارج عن الأرض وعن المادة المحسوسة .

فقد جذبت هذه الفرضية — بفضل إنتصاراتها التجريبية — عدداً كبيراً من ذوى الرأى وأدت بهم إلى قبول المذهب المادى أساساً لفلسفتهم فى الحياة ولا يزال كثير من الناس حتى يومنا هذا يتمسكون بالقول بأن كل ماهو مادى فهو حقيق . كأنهم يصدرون بذلك عن السليقة(١) .

وكانت الكنيسة محقة فى فزعها ومخاوفها من نظرية دارون ، فقد كان الباعث على التمسك بهذه النظرية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر يرجع إلى الموجة الالحادية التى سيطرت على العقول .

ومن أهم سماتها حصر طريق المعرفة فى الحس ، وحصر المعرفة الحقيقية فيما نعرفه عن هذا الطريق وبالتالى رفض المعارف الدينية .

يقول « آثر كيث »(٢) :

الارتقاء غير ثابت ولا يمكن إثباته ، ونحن نؤمن بهذه النظرية ، لان

---

(١) منازع الفكر الحديث : تأليف الفيلسوف المعاصر — جود — ترجمة عباس فضلى — مراجعة د/ عبد العزيز البسام . مطبوعات المجمع العلمى العراقى ١٩٥٦ م .

(٢) عاش مابين عام ١٨٦٦ — ١٩٥٥ .

البديل الوحيد هو الايمان بالخلق المباشر وهو أمر لا يمكن حتى التفكير فيه[1] .

ويقول صاحب كتاب الانسان بين المادية والاسلام :

وليس تهرب الداروينيين من البحث فى مسألة نشوء الحياة على ظهر الأرض بحجة أنها مسألة لا تهمنا فى البحث ولا يمكن الوصول إلى دليل فيها – إلا مظهراً للتهرب من الاعتراف بوجود كائن أعلى يشرف على الحياة والأحياء ويتدخل فى الخلق والانشاء . ثم يقول :

إنها فلسفة ترفض كل مالا تستطيع الحواس أن تدركه ولا تؤمن إلا بهذا الواقع الصغير الذى يبصره الحس ويصل إلى ميدانه العلم . ومن هذه الفلسفة المادية نشأت كل النظريات الغربية الحديثة وكل الفلسفات المسيطرة عليها .

منها نشأت شيوعية « كارل ماركس » فى الشرق وفلسفة « فرويد » فى أوربا والبراجماتزم فى أمريكا ، والوجودية فى فرنسا وكلها تمثل أصلاً واحداً وإن اختلفت المظاهر والفروع[2] .

فالايحاء بحيوانيه الانسان ليس هو الاثر الداروينى الوحيد الذى حط من قدره وكرامته ، بل إقترن به – كما قلنا – إيحاء آخر لا يقل خطورة عن الأول وهو الايحاء « بمادية الانسان » أى خضوعه للقوانين المادية التى تفرض عليه ماتفرضه على المادة الجامدة .

فالانسان فى نظر الداروينية لم يتطور مختارا – بل كان تطوره مظهراً لخضوعه المطلق للبيئة الطبيعيه ، أى عوامل خارجية حتمية – صحيح أن هذا التطور لمصلحته لكنه لم يكن نابعاً من إرادته .

---

(١) الدين فى مواجهه العلم – وحيد الدين خان ترجمة ظفر الاسلام خان ص٣٦ طبعه ثانية – المختار الاسلامى للطباعه والنشر .

(٢) محمد قطب ص ١٦ طبعة خامسة سنة ١٩٧٨م دار الشروق .

ولم يكن متوقعاً من الداروينية أن تقول ـ فى تلك الظروف السيئة ـ إن الله هو الذى اختار الانسان ، لأن ذلك يفقدها صفة [الميكانيكية] بل ويجرها إلى اعترافات أخرى كالإقرار بأن له روحا ، وأن لوجوده غرضا كما تقول الكنيسة .

وإذن فلا مناص من القول : بأن العوامل الطبيعية وحدها صانعة التطور وفارضته على الانسان ، والانسان ما هو إلا مرآة تنعكس عليها تقلبات الطبيعة المفاجئة وتخبطاتها غير المنهجية(١) .

ومن هنا كان هجوم الكنيسة على هذه النظرية هجوما شديدا .

---

(١) العلمانية : تأليف سفر بن عبد الرحمن الحوالى صـ ١٩٧ دار مكة للطباعة والنشر والتوزيع .

أثر نظرية التطور

ما إن أعلنت نظرية التطور حتى تلقفها أعداء الدين والانسانية ، وبخاصة الصهيونية العالمية . وبدأوا يحاربون بها الدين ويتخذون منها وسيلة لعلمنة الحياة قاطبة والبعد بها عن تعاليم الأديان كافة . مبررين هذا كله بأن الدين وهم من الاوهام . أو خرافة لا أساس لها من الحقيقة .

ومع أن « دارون » لم يقصد من نظريته إنكار الله جل جلاله ، أو مهاجمة الدين . فإنه — على حد تعبير العقاد — كان يأبى أن يوصف بالإلحاد ويحسب نفسه أحيانا « ربانيا » أى منكراً للمصادفة ومرجحا لعقيدة الربوبية .

ويؤكد إلى آخر أيامه أن الاستدلال بمذهب التطور على إنكار الإله خطأ كبير وادعاء لا سند له من العلم ولا من التفكير الأمين[1] .

ولم يقصد دارون أيضا بنظريته أن يفسر خلق الحياة .

يقول العقاد :

أما دارون فلم يزعم قط أن ثبوت التطور ينفى وجود الله . ولم يقل إن التطور يفسر خلق الحياة . وغاية ماذهب إليه أن التطور يفسر تعدد الأنواع الحيوانية والنباتية . وفى ختام كتابه عن أصل الأنواع يقول :

إن الأنواع ترجع فى أصولها إلى بضعة أنواع تفرعت على جرثومة الحياة التى أنشأها الخلاق[2] .

---

(١) عقائد المفكرين فى القرن العشرين ص ٧٠ طبعة ثالثة ١٩٧١ بيروت .
(٢) المصدر السابق ص ٦٧ - ٦٨ .

ومع أن كثيراً من العلماء والباحثين - إن لم يكن كلهم - يعلم أن نظرية دارون لم تخرج على أنها فرض من الفروض - رغم الإضافات التى أضيفت إليها بعد رحيل دارون عن الحياة — وأن هذا الفرض لم يثبت إلى الآن . وبالتالى فلم يصبح حقيقة علميـــة وأغلب الظن أنه لن يصبح فى يوم من الأيام حقيقة علمية .

يقول الأستاذ العقاد :

وإذا رجعنا إلى مكان مذهب التطور من العلم لم نجد من يحسبه علماً قاطعاً مفروغا من أصوله وفروعه ، وأكبر أنصاره لا يدعى له أكثر من أنه صحيح فى بعض ملاحظاته ومقارناته(١) .

ويقول ليكونت دينوى :

من المستحيل أن تتصور الآن كيف بدأ التطور ؟

أكان هناك خلية بدائية أم أنه يبدو من المستحسن القول بأن مادة حية لا شكل لها قد سبق وجودها الخلية الأولى ؟

ثم يقول : نكرر القول هنا بأنه لا توجد حقيقة واحدة أو نظرية واحدة فى يومنا هذا تقدم تفسيراً قاطعا لمولد الحياة وتطور الطبيعة .

إن سبب — وحتى حقيقة التطور — لا تدخل ضمن دائرة علمنا الحاضر . ولا يمكن لأى عالم فى الأرض أن ينكر ذلك(٢) .

---

(١) عقائد المفكرين فى القرن العشرين ص ٧٢ .

(٢) مصير البشرية - ليكونت دينوى — نقلا عن الجفوة بين العلم والدين ص ٤٣ .

(٣) المصدر السابق ص ١٩٢ .

وقد عرف أحد المعاجم العلمية نظرية دارون بأنها نظرية قائمة على تفسير بلا برهان[١] .

أقول رغم هذا كله فقد استغلت هذه النظرية أبشع إستغلال وتأثر بها الفكر الأوربي قاطبة بل وغير الفكر الاوربي .

---

(٤) الإسلام يتحدى - وحيد خان ص ٥٠ - طبعة ثانية ١٩٧٣ دار البحوث العلمية .

ماركس ونظرية التطور

لقد تأثر كارل ماركس بنظرية التطور فى ميدان بحثه وهو علم الاقتصاد ، ووضع مذهبا يتناول تصورا كاملا للحياة حيث قد وطد أركان التفسير المادى للتاريخ ، وهو تفسير يحمل للقوى المادية السلطان الأكبر على نشاط الإنسان كله كما يحمل هذا النشاط ماديا بصفة أساسية . ومنبعثا من الكيان الحيوانى للانسان فالقوى المادية والاقتصادية هى العنصر الفعال فى تاريخ البشرية .

والدين فى الفلسفة الشيوعية خدعة تاريخية ، فهى تركز الأسباب فى عوامل إقتصادية لأنها تنظر إلى التاريخ فى ضوء الاقتصاد .

وهى ترى أن العوامل التاريخية التى خلقت الدين هى النظام البورجوازى الاستعمارى القديم . وهذا النظام القديم يلاقى اليوم حتفه فلندع الدين أيضا يذهب معه .

يقول فيلسوف الشيوعية إنجلز :

إن كل القيم الأخلاقية فى تحليلها الأخير من خلق الظروف الاقتصادية .

فالتاريخ الانسانى هو تاريخ حروب الطبقات التى امتص فيها البرجوازيون دماء الفقراء . وقد كانت الغاية من وضع الدين والأسس الأخلاقية حماية حقوق البورجوازيين .

ويقول البيان الشيوعى :

إن الدستور الأخلاقى والدين خدعة البورجوازية ، وهى تتستر وراءها من أجل مطامعها .

ويقول « لينين »[1] :

إننا لا نؤمن بالإله ونحن نعرفه كل المعرفة . إن أرباب الكنيسة والإقطاعيين والبورجوازيين لا يخاطبوننا باسم الإله إلا إستغلالا ومحافظة على مصالحهم[2] .

وحقيقة العالم — على حد تعبير ماركس — تنحصر فى ماديته وفى ظل التفسير المادى للتاريخ لا يوجد : الله . ولا الوحى . ولا الرسالات ـ والدين ـ فى رأى ماركس ـ هو أفيون الشعوب .

والقيم الأخلاقية فى رأيه هى انعكاس للوضع الاقتصادى . ومن ثم فليس لها وجود أصيل فى الحياة البشرية .

***

(١) فى الخطاب الذى ألقاه فى المؤتمر الثالث عشر لمنظمة الشباب الشيوعى فى أكتوبر ١٩٢٠ م .

(٢) الإسلام يتحدى ـ وحيد الدين خان ص ٢٠ .

فرويد ونظرية التطور

وتأثر بنظرية التطور أيضا « فرويد » وأول ما يبدو من هذا التأثر هو نظرته إلى الانسان على أنه مخلوق أرضي . عالمه كله محصور فى هذا النطاق الضيق القريب .

ولكن هذا ليس كل شيء . فقد تأثر بها من زاويه أخرى حين أزال عن الإنسان ماكان يحوطه من كرامة إنسانية . ومن رفعة وشفافية روحانية وذلك على اعتبار أن رعاية الله لهذا المخلوق وتكريمه له خرافة كبيرة نتجت من الخرافة الكبرى المتصلة بخلق آدم .

وتأثر بها من زاوية ثالثة حين تابعه فى قوله : إن غرائز الإنسان هى الامتداد الطبيعى لغرائز الحيوانات السابقة له فى سلم الصعود مضافا إليها قدراً من التطور . هو القدر الذى نتج من الظروف التى صادفت الجد الأعلى للانسان فأثرت فيه وأنتجت منه الكائن البشرى على مر الأيام .

ومن هنا نجد أن نظريات فرويد هى الامتداد الطبيعى لنظرية دارون أو هى تخصيص لها فى ميدان الإنسان(١) .

فحياة الإنسان بادىء ذى بدء حياة حيوانية بحتة . فغرائزه — فى زعم فرويد — هى التى تحكمه وتسيطر عليه وعلى نشاطه .

فحياته كلها جنس أو منبثقة عن الجنس . والجنس يبدأ مبكراً جداً لافى مرحلة

---

(١) الإنسان بين المادية والإسلام ص ٢٤ - محمد قطب : الطبعة الخامسة ٧٨ دار الشروق .

البلوغ أو المراهقة كما يحسب الجهلاء من الناس . وإنما يبدأ من لحظة الميلاد بل يولد الانسان جنساً خالصاً مركزاً فى إهاب طفل حيوان صغير . وكل أعماله تعبير عن طاقة الجنس . فالرضاعة جنس والإلتصاق بالام جنس .

فالطفل يعشق أمه بدافع الجنس ثم يجد الأب حائلا بينها وبينه فيكبت هذا العشق . فتنشأ فى نفسه عقدة أديب ، ومن هذه العقدة ينشأ الضمير والدين والاخلاق والتقاليد . وكل القيم العليا فى حياة البشرية .

وهكذا يصر فرويد على أن يفسر النفس كلها بجميع ألوان نشاطها من خلال الطاقة الجنسية بالذات . ويصر أكثر من ذلك — وهذا موضع الخطر — على أن يفسر الدين والأخلاق بصفة خاصة بأنها إنبثاق جنس . وجنس على وجه التحديد[1] .

وقد نشأت فى أوربا أبحاث فلسفية واجتماعية تقوم كلها على أساس التفسيرات التى قدمها فرويد للنفس الانسانية .

وتحاول أن تثبت أن تقاليد المجتمع — التى يضعها ليحافظ بها على كيانه — هى قيود تحكمية ليس لها مايبررها . وأن روابط الأسرة غل من الاغلال التى ينبغى الفكاك منها لتحقيق السعادة والهناء . ولم تعد تذكر الأخلاق والدين إلا بالحنق والسخط . أو بالهزء والسخرية والاستخفاف .

وانتهى الأمر فى كثير من شعوب أوربا وفى أمريكا كلها إلى تحطيم المجتمع وحل روابط الأسرة والانسلاخ الكامل من تراث الأجيال السابقة كلها من أخلاق وتقاليد .

---

(١) التطور والثبات فى حياة البشر ص ٤٦ ومابعدها بتصرف — الطبعة الرابعة ١٩٨٠ م — دار الشروق — محمد قطب .

وليست دعوة الوجودية المنتشرة فى فرنسا إلا امتداداً ساماً لإيحاءات نظرية فرويد . فهى تدعو إلى تحطيم كل قيد يقف فى سبيل تحقيق ذاتية الفرد الكاملة سواء كان هذا القيد من دواعى السماء أو الأرض . فليفعل كل إنسان مايبدو له هو شخصيا أنه الحق . ولو خالف كل ما اصطلح عليه الناس ولو خالف العقل والمنطق أيضا .

فالوجودية ترى أن مبادىء الدين والأخلاق قد أفسدت قيادة البشر . وأن الانسان لم يعد يؤمن إلا بأنه موجود وعليه أن يعدل سلوكه فى كل موقف من مواقف الحياة بمحض اختياره وتقريره الفعلى لمصلحته الحقيقية كفرد وكعضو فى فى المجتمع بدل أن يعود إلى التراث الدينى والأخلاقى يستوحى منه سلوكه : ويتمثل هذا السلوك الوجودى فى مسرحية الذباب التى كتبها « سارتر » وفيها يقتل الابن أمه بالاشتراك مع أخته لأنهما رأيا مصلحتهما الشخصية فى ذلك . وأنهما إستطاعا بعد ذلك أن يستبعدا عنهما عذاب الضمير الذى شبهه بطنين الذباب . لأن راحتهما وسعادتهما متوقفة — فى رأيهما — على قتل هذه الأم .

يقول سارتر :

إن الوجودية ليست دعوة بل تقرير واقع . وإن البشر قد تحولوا إلى وجوديين بضغط تلقائى من الأحداث والفجائع التى إبتلوا بها فى الحرب[1] .

وما الحيوانية الكاملة التى يمارسها الشباب فى أوربا وأمريكا من الجنسين ليتحرروا من القيود إلا أثر سام لإيحاءات فرويد فى مسألة الجنس .

❋ ❋ ❋

دوركايم ونظرية التطور

وتأثر « دور كايم » كذلك بنظرية التطور ونقلها إلى مجال تخصصه وأبحاثه . نقلها إلى علم الاجتماع وقال :

إن الحياة البشرية ذات الصبغة الاجتماعية لا يمكن أن تفسر عن طريق نفسية الفرد وطبيعته وكيانه الفردى ، وإنما يفسرها وجود العقل الجمعى خارج نطاق الأفراد . وخلص من هذا إلى أن الدين ليس فطريا . وكذلك الزوج والأسرة والقواعد الخلقية لا وجود لها فى ذاتها .

لقد أخذ « دور كايم » كثيراً عن دارون :

أخذ عنه بادىء ذى بدء فكرة التطور الدائم الذى يلغى فكرة الثبات لأى شىء . فلا ثبات لخلق أو دين أو فضائل أو قيم . الخ .

وأخذ عنه فكرة القهر الخارجى الذى يقهر الفرد على غير رغبة ذاتية منه فيطوره .

وأخذ عنه التفسير الحيوانى للانسان . فهو لا يفتأ يستشهد فى كل حالة بما يحدث فى عالم الحيوان(١) .

أضف إلى ذلك أنه لم يقم قط برهان على أن الميل إلى الاجتماع كان غريزة وراثية وجدت لدى الجنس البشرى منذ نشأته .

وإنه لمن الطبيعى جداً أن ننظر إلى هذا الميل على أنه نتيجة للحياة الاجتماعية

---

(١) قواعد المنهج فى علم الاجتماع : تأليف دور كايم ص ١٧٣ - ترجمة د/ محمود قاسم : مراجعة د/ السيد محمد بدوى طبعة ثانية .

التى تشربت بها نفوسنا على مر العصور والأحقاب، وذلك لأننا نلاحظ — فى الواقع — أن الحيوانات تعيش جماعات أو أفراداً تبعاً لطبيعة مساكنها التى توجب عليها الحياة فى جماعة أو تصرفها عن هذه الحياة(١).

لقد أخذ دور كايم العالم اليهودى الإيحاء الحيوانى لنظرية دارون ووسع نطاقه ومده مدة واسعة فشمل الحياة كلها تحت ستار من البحث العلمى فى علم الاجتماع وفى جولته الواسعة فى هذا العلم إهتم بأن ينفى الفطرة عن الدين وأن يقول إن الأخلاق ليست قيمة ذاتية ولا هى ثابتة على وضع معين. وإنما تأخذ صورتها من المجتمع الذى توجد فيه. ذلك لأن المجتمع — فى رأيه — هو الأصل فى كل الظواهر الاجتماعية وليس الانسان.

إن ما ذهب إليه دوركايم فى مذهبه الاجتماعى الذى يضمه كتابه (قواعد المنهج فى علم الاجتماع) ليس إلا نظرية وفرضية بناهـــا عقله فى ضوء تحديات كثيرة.

منها : التحديات العامة.

ومنها : التحديات الخاصة.

ولـكل فيلسوف من ظروفه الخاصة ظل وأثر على آرائه لا ريب فى ذلك.
أما التحديات العامة : فذلك أن (دور كايم) هو ربيب الثقافة الماركسية أو المذهب الماركسى والنظريات المادية ومفهومه معارض تماماً لـكل القيم الأساسية التى جاءت بها الفطرة أو صاغتها الأديان فى منهجها الربانى القائم على الفطرة وهو — فى كل دعاواه — يأخذ الطرف الثانى المعارض.

---

(١) التطور والثبات : محمد قطب ص ٥٤.

فإذا أعلنت الأديان أن الدين فطرة.. وأن الأسرة فطرة . أعلن هو عكس ذلك تماما فقال :

إن الجريمة هي الفطرة . لكن الدين والأسرة ليسا من الفطرة في شيء وهو تابع في نفس الوقت للمدرسة التي بناها ماركس في التفسير المادي للتاريخ . فهو واحد من كبار الدعاة إلى إنكار الفرد ومسئوليته ودوره وإعلاء شأن الظاهرة الاجتماعية وتحملها كل النتائج على النحو الذي يؤدي إلى أخطر الآثار التي يترتب عليها إنكار مسئولية الفرد والتزامه الأخلاق وجزاؤه .

ومن شأن هذا أن يسوغ للأفراد تصرفاتهم ويحررهم من التبعية ويلقيها كلها على المجتمع .

ولا ريب أن هذا الإتجاه معارض معارضة جوهرية لمفهوم الدين الحق والقاعدة الأساسية من قواعد الإيمان .

يقول « دوركايم » :

إن الفرد لا قيمة له ولا معنى للتشبث بالحرية الفردية . وإنما القيم كلها للمجتمع الذي يخلق الأديان والعقائد والقيم الروحية وكلها عبث لا قيمة لها[١] .

ويرى العقاد أن دوركايم هو رسول الماركسية في ميدان العلم الاجتماعي تكفل بنقل آراء كارل ماركس من مباحث الاقتصاد والسياسة إلى مباحث الاجتماع والأخلاق[٢]

---

(١) إطار إسلامي للفكر المعاصر ص٩٧ : أنور الجندي — الطبعة الأولى ١٩٨٠ المكتب الاسلامي .

(٢) المخططات التلمودية اليهودية الصهيونية ص ١٧٢ - أنور الجندي - طبعة ثانية ١٩٧٧م دار الاعتصام .

ولا ريب أن نظرية دور كايم فى علم الاجتماع حين تلتقى بنظرية « فرويد » فى علم النفس ونظرية « ماركس » فى الاقتصاد من شأنها أن تشكل إنسانا مضطربا مزعزع الوجدان .

واليهود الثلاثة هم القادة المسيطرون على الفكر الغربى الذى يقدم أو يفرض على أنه هو الفكر العالمى .

لقد تأثرت الحياة الاوربية كلها بنظرية التطور واصطبغت بصبغتها المادية .

يقول الاستاذ محمد فريد وجدى :

مذهب « دارون » موضوعه « الفزيولوجيا » كما هو معلوم . فكان المنتظر أن يكون تأثيره محصوراً فى عالم العلم الطبيعى — ولكنه لمساسه بمسألة خلق الإنسان خرج عن دائرة العلم الطبيعى وأغار على الفلسفة العقلية والفلسفة الحسية والعلوم الادبية والاخلاقية وجاوز كل تلك الدوائر حتى التهم العلم السياسى أيضا ..

وعلى هذه الصورة إنتشر بين الطبقات الاجتماعية حتى وصل إلى عامة الناس ودخل معاملاتهم ومجاملاتهم وصارت مبادئه قاعدة أساسية لأخلاقهم وعاداتهم حتى أصبح عامة الشعوب الاوربية داروينين فعلا وإن لم يحسنوه علما[١] .

وكان تأثير الثالوث : ماركس — فرويد — دوركايم . خطيرا جدا حيث تضافرت جهودهم واتجهت إلى أنه :

ينبغى أن تحطم قيود الاخلاق .. فهى قيد يعوق التطور ، وقد تقيدنا بها فى الماضى فى المجتمع الزراعى فينبغى أن تطرحها اليوم فى المجتمع الصناعى المتطور

---

(١) الاسلام فى عصر العلم صـ ٧٦٦ طبعة ثالثة ـ بيروت سنة ١٩٧٧ ـ دار الكتاب العربى : محمد فريد وجدى .

(ماركس) أو تقيدنا بها نتيجة الجهل الخطير بحقيقة النفس الباطنية وبأن الأخلاق كبت ضار بكيان الإنسان (فرويد) أو تقيدنا بها جهلا منا بأنه لا توجد حقيقة ثابتة للقيم الخلقية ، إنما هي تتطور بتطور وسائل الإنتاج (ماركس) أو تتطور بتطور حالة المجتمع (دوركايم) .

وينبغي كذلك أن نحطم الدين فهو قيد آخر يعوق التقدم . وقد ورثناه من أسلافنا في عماية وجهالة وجمود وتأخر .

نحن اليوم في المجتمع الصناعي المتطور الذي لا يطيق هذه الخزعبلات (ماركس) أو قد كان هذا الدين يناسب عصر الجهالة السابقة يوم كنا نظن الدين شيئا له قداسة ـ ومنزلا من السماء . قبل أن نعرف أن كبت الجنس ضار منفر (فرويد) أو يوم ظننا ـ خطأ منا وجهالة ـ أنه قدرة إنسانية (دوركايم[1]) .

وهكذا اتخذ العلماء الباحثون نظرية التطور دعامة من الدعامات الأساسية التي يقوم عليها الإلحاد . وهي في نفس الوقت أحد الأقانيم الثلاثة (المصادفة ـ الطبيعة ـ التطور) التي يحلها الملاحدة محل الخالق جلت قدرته . وينسبون إليها كل ما كان وسيكون .

ونظرية التطور المعروفة من أقوى الأسلحة بل هي ـ إذا استثنينا عامل الشر ـ أقوى سلاح يشهره الملاحدة ويحاربون به فكرة الخالق وكل ما يتصل بعالم الروح[2] .

ومن حصلة أبحاث العلماء وآرائهم العلمية . بدءاً من جاليليو وبيكون . ومروراً بماركس وفرويد . وانتهاءاً بدوركايم ـ حدثت حركات ضخمة في المجتمع

---

(١) التطور والثبات : محمد قطب .

(٢) صـ ٤١ ـ ٤٢ محمد علي يوسف : الجفوة المفتعلة بين العلم والدين : دار الحياة بيروت ١٩٦٦ م .

العربي في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، واتجهت في حملات قاسية على الدين والأخلاق والتقاليد ونفي القداسة عنها وتشويه سمعتها وتشكيك الناس في قيمتها والقيام بهذه الحملات باسم العلم والبحث العلمي مدعما بالتجربة الحسية ورأى الناس أن الكنيسة تقف موقف العداء للعلم والعلماء .

تقول دائرة المعارف البريطانية ما نصه :

إن الكنيسة الرومانية الكاثوليكية رفضت أي نتيجة خالف العلم فيها الانجيل(١) .

ورأى الناس كذلك أن العلم ينتصر دائماً ، وأن الصواب في جانبه ، وأن التجربة تؤيده .

يقول العلامه « الفرد هوايت هد » :

ما من مسألة ناقض العلم فيها الدين إلا وكان الصواب بجانب العلم والخطأ حليف الدين(٢) .

ويقول أستاذ أمريكي في طب الأعضاء :

لقد أثبت العلم أن الدين كان أقسى وأسوأ خدعة في التاريخ(٣) .

* * *

---

(١) صـ ٣٦ المجلد الخامس طبعة ١٩٥٣ م .

(٢) نقلا عن صـ ١٢ محمد على يوسف - الجفوة المفتعلة بين العلم والدين .

(٣) صـ ٣٠ الإسلام يتحدى - وحيد الدين خان جـ ١ طبعة ثانية ١٩٧٣ - دار البحوث العلمية .

وانحازت أوربا إلى جانب العلم وانتصرت له ونزعت عنها سلطان الدين. وارتدت رومانية كاملة لا يقف شيء في سبيل نزعتها الرومانية المادية، التي لا تعرف غير الجسد ونزواته، ولا تؤمن إلا بالواقع المادي الذي تثبته الحواس[1].

واعتقدت أوربا المنافاة التامة بين العلم والدين وتقرر — في وجدانها — بأنهما عدوان لدودان وضدان لا يجتمعان، وسرت تلك العقيدة من العلماء إلى الأمراء ومنهم إلى الخاصة والعامة فلم يسع الناس إلا الانحياز لجهة العلم مدفوعين بالضرورة ومحفوزين بحكم الحاجة لما يرون من خيرات العلم وبركاته وما يتنعمون به من اكتشافاته وابتكاراته وفهموا أن العلم منبع الحياة الحقيقية وملاك السعادة الإنسانية، وأيقنوا أن الدين باعثه الجهل ومادته العماية عن حقائق الكون، وأن للأديان أزمنة خاصة في تاريخ الانسان — تؤدي وظيفتها ثم تنتهي بانتهاء دورها، وسينتهي الأمر — كما يكتبون في كتبهم، بزوال الدين بالمرة[2].

آمنت أوربا بالعلم وكفرت بالدين، بل لقد ثار المجددون المتنورون وأصبحوا حربا على رجال الدين وممثلي الكنيسة والمحافظين على القديم، ومقتوا كل ما يتصل بهم ويعزى إليهم من عقيدة وثقافة وعلم وأخلاق وآداب.

وعادوا الدين المسيحي أولا والدين المطلق ثانيا، وبدأت الحرب بين العلم والدين، وقرر الثائرون أن العلم والدين ضرتان لا تتصالحان وأن العقل والنظام والدين ضدان لا يجتمعان، فمن استقبل أحدهما استدبر الآخر، ومن آمن بالأول كفر بالثاني.

---

(١) الانسان بين المادية والاسلام – محمد قطب ص ١٦.
(٢) الاسلام في عصر العلم – محمد فريد وجدي – طبعة ثالثة ١٩٦٧ بيروت.

وكان أحرار العلماء إذا ذكروا تلك الدماء الزكية التى أريقت فى سبيل العلم والتحقيق ، وتلك النفوس البريئة التى ذهبت ضحية القساوسة ووساوسهم ، وتمثل لأعينهم وجوه كالحة عابسة وحياة مقطبه، وعيون ترى بالشرر ، وصدور ضيقة حرجه وعقول سخيفة بليدة — إشمأزت قلوبهم وآلوا على أنفسهم كراهة هؤلاء وكل ما يمثلونه ، وتواصوا به وجعلوه كلمة باقية فى أعقابهم(١) .

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٩٤ - ١٩٦ لأبى الحسن الندوى — طبعه عاشرة ٧٧ م - دار الأنصار .

الفصل الثانى

ظهور العلمانية فى أوربا

إن ما شهدته أوربا من مظالم وقسوة وسوء تصرف عبر تاريخها الطويل ، ومن صراع رهيب بين العقل والدين ، ذلك الصراع العنيف القاسى الذى ذهب ضحيته علماء كبار ، وأحرقت — من أجله — تلال من الكتب وسالت — فى ساحته — دماء زكية .

هذا الصراع أنتج بالضرورة ظهور العلمانية ، والإيمان بالمذهب المادى الذى اتسمت به الحضارة المعاصرة .

فقد ذهب دعاة العلمانية بأن العلمانية هى الدعوة إلى الاعتماد على الواقع الذى تدركه الحواس ، ونبذ كل ما لا تؤيده التجربة والتحرر من العقائد الغيبية التى هى عندهم ضرب من الأوهام ومن العواطف بكل ضروبها : وطنية كانت أو دينية بزعم أنها تضلل صاحبها وتحول بينه وبين الوصول إلى أحكام موضوعية محايدة(١) .

وهبت العواصف المادية والزوابع الالحادية على أوربا — باسم العلمانية — إذ أعلن أربابها فى غير خجل أو حياء : أن العالم الحس هو وحده الموجود ، وأن

---

(١) انظر إتجاهات هدامة فى الفكر المعاصر للدكتور محسن محمد حسين نقلا عن ص ٣٩ - أنور الجندى سقوط العلمانيه - طبعه أولى ١٩٧٣ م - دار الكتاب اللبنانى .

مالايناله الحس بجوهره ففرض وجوده محال وأن مالايكون موضوعا للعلم التجريبي فهو من الأخيلة والأحلام، أولون من ألوان الأساطير والأوهام ، وأنهم غير مزعنين للايمان بالله والروح إلا إذا وضعا على المشرحه وسلط عليهما الميكروسكوب ، وأنه يجب أن يزيلوا من طريقهم كل عقبة تحول بينهم وبين الاستمتاع برغباتهم المادية ولذائذها الغريزية . فإن كانت هذه العقبة خلقا محوه ، وإن كانت عرفا محوه وإن كانت دينا أزالوه ، أو إلها نسفوه[1] .

ولقد كان ظهور العلمانية خطوة طبيعية فى الفكر الغربي نتيجة قصور المفاهيم الدينية التى كان يحملها رجاله عن مجاراة النهضة ، فكان هذا القصور مع تلك الحملة الضخمة التى شنتها الكنيسة على العلم — مصدراً من المصادر الهامة فى زيادة التحدى الذى رد به رجال النهضة بإقصاء الدين كلية عن محيط الفكر والمجتمع فى الغرب .

ونهض الكتاب والأدباء والاجتماعيون والفلاسفة فى كل ناحية من نواحى أوربا ينفخون فى صور المادية وينفثون بأقلامهم سمومها فى عقل الجمهور وقلبه ، ويفسرون الأخلاق تفسيراً مادياً .

فتارة ينشرون الفلسفة النفعية ، وطوراً فلسفة اللذة الابيقورية .

ودعا السياسيون أمثال «ميكيافيلي»[2] إلى فصل الدين عن السياسة (العلمانية) وتقسيم الأخلاق إلى شخصية واجتماعية ، وقرروا أن الدين — إذا كان لابد منه — فليكن قضية شخصية لا ينبغى أن تتدخل فى أمور السياسة والدولة، وأن

---

(١) المعرفة عند مفكرى المسلمين ص ٧٨ - ٧٩ د/محمد غلاب - الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ م .

(٢) عاش فى عام ١٤٩٦ - ١٥٢٧ م .

الدوله عندهم أعز وأغلى من كل شيء ، وأن النصرانية إنما موضوعها الحياه الأخروية ، وأن المتدينين والصالحين لايفيدوجودهم الدولة وإن كان يقيد الكنيسة لانهم يتقيدون بأحكام الدين ، ولأنهم لا يستطيعون أن يحيدوا عن أحكام الدين ومبادىء الاخلاق إذا اقتضت المصلحة غير ذلك ، وأن الملوك والأمراء يجب عليهم أن يتخلقوا بأخلاق الثعالب ولا يتورعوا من نقض العهودوالكذب والخيانة والغش والنفاق إذا كان فى ذلك للدوله ، فالغاية فى رأيهم تبرر الوسيلة[١] .

ومنذ ظهور العلمانية وإلى اليوم إتخذ الفكر الاوربى موقفاً عدائياً لا من الافكار والتصورات الكنسية التى كانت سائدة يومذاك بل من الافكار والتصورات الدينية على الاطلاق . بل تجاوز العداء الأفكار والتصورات الدينية إلى منهج التفكير الدينى بجملته ، واتجه الفكر الاوربى إلى ابتداع مناهج ومذاهب للتفكير، الغرض الاساسى منها هو معارضة منهج الفكر الدينى والتخلص من سلطان الكنيسة بالتخلص من إله الكنيسة ومن كل مايتعلق به من أفكار ومن مناهج التفكير أيضا ، وكن العداء للدين والمنهج الدينى لا فى الموضوعات والفلسفات والمذاهب التى أنشأها الفكر الاوربى بل فى صميم هذا الفكر وفى صميم المناهج التى يتخذها للمعرفة[٢] .

---

(١) صـ ٣٤ من الفلسفة الحديثة د / محمد على أبو ريان طبعة أولى ٦٩ م دار الكتب الجامعيه . سلسلة تاريخ الفكر الفلسفى وانظر صـ ١٩٧ ماذا خسر العالم من انحطاط المسلمين لأبى الحسن الندوى .

(٢) خصائص التصور الاسلامى ومقوماته صـ١٦ سيد قطب : طبعة رابعة : دار الشروق ٧٨ م .

اليهود والعلمانية

وفرحت المنظمات الماسونية اليهودية بدعوة الفصل بين الدين والدولة وسارعوا فى إسقاط الحكومات التى تسيطر عليها الكنيسه وإنشاء حكومات أخرى متحررة من قيود الدين ، وقد كانت الثورة الفرنسية أولى الخطوات فى هذا السبيل ، وقد تلتها ثورات متعددة فى مختلف الأقطار الأوربية استطاعت الفصل بين الدين والدوله وتحويل التعليم الغربى كله إلى تعليم علمانى .

وهكذا تدخل اليهود فى المجتمع الاوربى بعد أن إنقطوا عنه ، وقد كان أول قرار لأول حكومه علمانية فى أوربا وهى « الجمعية الوطنية الفرنسية »[1] هو اعتبار اليهود المقيمين فى فرنسا مواطنين لهم كل حقوق المواطن وعليهم جميع واجباته .

فالعلمانية هى السيف المسلط الذى حطم به اليهود القيد الذى يفصلهم فى كل مجتمع ويحول بينهم وبين السيطرة على مقدراته .

يقول الدكتور الفاروقى[2] :

علينا أن نتذكر أن تحرر اليهود لم يأت إلا نتيجه لنمو العلمانية فى التنظيم السياسى والاجتماعى ، أى أن إقصاء الدين عن السياسه والاقتصاد والاجتماع أدى إلى اعتبار المنفعة العامة والانتاج والخبرة والأهلية كأساس لجميع المعاملات

---

(١) تاريخ ١٧/٦/١٧٧١م .
(٢) صاحب كتاب الملل المعاصرة فى الدين اليهودى ص ١٤٠ .

والتنظيمات ، ومن هنا جاء قبول اليهود على أساس كفاءتهم الشخصية[١] .

ويقول أحد الباحثين الغربيين :

إن الفصل بين الدولة والدين فى الدول الغربية ساعد على انصهار اليهود فى هذه المجتمعات ..

لقد حلت المشكلة اليهودية فى دول غرب أوربا بتحرر الدولة من الدين ولكن مع تحرر اليهود من الاضطهاد سيطرت اليهودية على المجتمع بأسره وأصبحنا تواجه مشكلة تحرير المجتمع من اليهودية .

وأوضح « ماركس » أنه يستحيل تحرير المجتمع من اليهودية إلا بالقضاء على البورجوازية تلك الطبقة التى ارتبطت سيطرتها على المجتمع بسيطرة اليهودية عليه[٢] .

ويقول بازنت لينفيون مؤلف كتاب « شعب غريب » :

إن اليهود يرفضون سيطرة الدين على الدولة أو الكنيسة على الدولة لأن هذا معناه أن تصبح الديانة المسيحية مفروضة على أولادهم لذلك كانوا أول من نادى بفصل الكنيسة عن الدولة[٣] .

وسرعان ماسيطر اليهود على ميادين الفكر والثقافة والطب والعلم والصحافة

---

(١) ص ١٤٩ – ١٥٠ الاسلام والدعوات الهدامة : أنور الجندى : طبعه أولى ١٩٧٤ دار الكتاب اللبنانى بيروت .

(٢) ص ٢٢٦ أنور الجندى : المخططات التلمودية اليهودية الصهيونية : طبعة ثانيه ١٩٠٧ : دار الاعتصام .

(٣) ص ٢٢٥ من المصدر السابق .

وتركوا لغيرهم مراكز السيطرة السياسية ، وإن كانوا يحركونها من خلال محافلهم الماسونية وما ينشرون فيها من فساد لتحطيم كل القيم الانسانية .

يقول د/ اسحق وايزمان فى كتابه « إسرائيل وأمريكا » :

« إن الماسونية مؤسسة يهودية » .

ويقول « دلامار » :

إن الماسونية بنشرها أسباب الفساد والخلاعة قد أضرت بفرنسا أكثر من حرب السبعين(١) .

* * *

فلقد أدرك اليهود أنهم لن يستطيعوا السيطرة على أوربا إلا من خلال نشر الإلحاد بالله والكفر بجميع الأمور الغيبية وإقامة الحسابات الرياضية والرغبات المادية مقامها والوقوف عند حدود المحسات ، فقد جاء فى « بروتوكولات حكماء صهيون » قولهم فى البرتوكول الرابع :

(يجب علينا أن ننتزع فكرة الله ذاتها من عقول غير اليهود ، وأن نضع مكانها عمليات حسابية ورغبات مادية) .

وأدركوا كذلك أنهم لن يحققوا هذا الهدف إلا من خلال المنظمات الماسونية التى تأخذ على عاتقها محاربة الدين فى كل مكان .

---

(١) صـ ٥٧ - ٥٨ من المخططات التلموديه : أنور الجندى .

(٢) عقد عام ١٩٢٣ م .

فقد جاء في إحدى الكلمات التي ألقيت في مؤتمر الشرق الأعظم الماسوني(٢) قول أحد أقطابهم :

(يجب ألا تقتصر الماسونيه على شعب دون غيره، ولتحقيق الماسونيه العالمية يجب سحق عدونا الأزلي الذي هو الدين مع إزالة رجاله)(٣) .

ولذا فقد أفسد اليهود حياة أوربا الفكرية والعقائدية والأخلاقية والاجتماعيه .

وها هو الكاتب الإيطالي « جيوفاني يابيني » ينقل حواراً وقع بين مليونير أمريكي ويهودي يصور فيه الأخير ما قام به بنو جنسه من تضليل وإفساد لحياة الناس في أوربا قائلا :

(ا) اعتقد الناس زمناً طويلا أن السياسة والأخلاق والدين والفن هو ظواهر سامية للفكر ، ولا علاقة لها بالبورصة وشئون القطن ، فجاء اليهودي « كارل ماركس » مؤسس الاشتراكية وأثبت أن هذه الأشياء خيالية ولا تعيش ولا تنمو إلا فوق علم اقتصادي حقير .

(ب) كان الناس يعتقدون أن الدين شيء سام يقرب العبد من الله ، فجاء اليهودي «سلامون نيارج» واستطاع بدهائه أن يبرهن : أن الديانات هي خلاصة خرافات وأوهام وحشية .

والهدف من هذا كله واضح وهو سيطرة اليهود على العالم عن طريق هدم أديان الناس جميعاً ، وإحلال دينهم وحده مكانها .

---

(١) ص ٣٠٢-٣٠٤ مكايد يهودية عبر التاريخ - طبعة ثانية - دار القلم - عبد الرحمن حنبكة الميداني .

يقول البروتوكول الرابع عشر[١] :

(حينما نمكن لأنفسنا فنكون سادة الأرض لن نبيح قيام أى دين غير ديننا)

ومن هنا كان تشجيع اليهود لكل عالم تتفق أبحاثه مع وجهة نظرهم وكل من يحقق أهدافهم ويخدم مصالحهم ، ولذا سارعوا فى الترويج لأبحاث « دارون » وعملوا على نجاحها . وفى هذا تقول بروتوكولاتهم :

إن دارون ليس يهودياً ولكننا عرفنا كيف ننشر آراءه على نطاق واسع ونستغلها فى تحطيم الدين المسيحى[٢] .

وتقول :

لقد رتبنا نجاح دارون وماركس ونيتشه .. [٣] بالترويج لآرائهم ، وإن الأثر الهدام للاخلاق الذى تنشئه علومهم فى الفكر غير اليهودى واضح لنا بكل تأكيد[٤] .

وإذا كان اليهود قد سارعوا بنشر أعلام العلمانية وعملوا على دعمها ونشر أفكارها من أجل تحقيق أهدافهم فإننا مع ذلك نقرر للحق والتاريخ أن العلمانية فى الحضارة الغربية فوق أنها كانت رد الفعل الطبيعى على استبداد الكهانة الكنسية بشئون الدولة والمجتمع ، المادية والفكرية ، وجمودها وتجاوزاتها :

فإن هذه العلمانية كانت الحل الطبيعى والصحيح فى إطار الحضارة المسيحية .

---

(١) المصدر السابق ص ٣١٦ ومابعدها نقلا عنه بتصرف .

(٢) التطور والثبات ـ محمد قطب ـ ص ٣٣ .

(٣) هو فيلسوف ألمانى نادى بفكرة الإنسان الأعلى وموت الإله وهو بهذا قد شجع على نبذ الدين .

(٤) التطور والثبات ـ محمد قطب ص ٥٧ .

ذلك لأن المسيحية ديانة روحية ليس بها تشريع مدنى لحكم الدولة وسياسة المجتمع وهى قد دعت إلى ترك ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، وحددت لكنيستها ميداناً لا تتعداه هو « خلاص الأرواح » .

ومن هنا فإن الدولة فى ظل الديانة المسيحيه لابد وأن تكون علمانية ، تفصل الدين عن مكان الهيمنة على المجتمع ومؤسساته الدنيوية .

فالعلمانية فى الإطار المسيحى ، لا تمثل عدوانا على المسيحية ولا على كنيستها وإنما تمثل التصحيح الذى يعيد الكنيسة ولاهوتها إلى إطارهما الطبيعى والصحيح[1]

(١) العلمانية ونهضتنا الحديثة ـ د/ محمد عمارة صـ ٢٨ ـ دار الشروق .

العلمانية وتشكيل الفكر الأوربى

لقد أخذ الفكر الأوربى يشكل نفسه من جديد بعد فصل الدين عن الحياة من خلال المنهج التجريبى الذى وفد إلى أوربا من نتاج فكر المسلمين .

ومضى الرجل الأوربى – تحت راية العلمانية – يقسم حياته إلى دوائر . ويجعل بينها سدوداً تمنع أى اتصال بينها وأخذت الحياة تجرى فى كل هذه الدوائر بموجب قوانين خاصة لا علاقة بين ما يجرى فى دائرة وغيرها من الدوائر الأخرى ، فالعائلة والأخلاق الشخصية والدين والاقتصاد والسياسة والاجتماع ، كل منها له ملكوته الخاص المستقل ، والويل كل الويل إذا سمح الغربى لمبادىء الدين أن تتعدى حدودها للتأثير فى الاقتصاد .

والواقع أن العلمانية ليست سوى الاعتراف بأنه ليس هناك مبدأ عام يشمل حياة الناس بأكلها كما هو الحال فى النظرة الدينية فأصبح لكل من دوائر الحياة مبدأ خاص [1] .

الإلحاد والعلم مكان الدين :

إنطلق عفريت العلم من قمقمه الذى حبس فيه طويلا ، لا يبالى بشىء ولايترك شيئاً إلا أحدث فيه أمراً خطيراً ، فصدرت للفلاسفة والمفكرين الأوربيين كتب وبحوث خطيرة فى نقد الدين حتى إن بعض المفكرين أنكروا وجود المسيح نفسه [2] .

---

(١) ص ١٥٠ ، ١٥١ د/ الفاروقى فى كتابه الملل المعاصرة فى الدين اليهودى .

(٢) ص ٤٥ أحمد عبد الغفور عطار – الشيوعية طبعة أولى سنة ١٩٨٠ دار الأندلس .

واتخذ علماء أوربا مناهج المسلمين فى البحث العلمى رجاء الوصول إلى الحقائق العلمية ، ولم يمض عليهم غير يسير من الزمن حتى تقدمت علومهم تقدماً هائلا مذهلا لم يكن فى الحسبان ، تقدمت فى علوم للطب والفلك والهندسة والفزياء والكمياء والتاريخ الطبيعى وعلوم الحياة وغيرها .

وطفر العقل الأوربى طفرات واسعة فاقت كل تقدير حتى بهرت الناس جميعاً

هنالك أخذ الأوربيون بهذا التقدم العلمى الذى أتاح لهم حياة هنية لم يشاهدوها وهم يعيشون تحت راية الدين ، ولكنهم رأوها وسعدوا بها وهم يسيرون تحت راية العلمانية .

وطبيعى أن يكون الأوربيون قد بهروا بهذا التقدم الرائع الذى حققه لهم العلم وظنوا أن المنهج العلمى أو العلم الحديث عليهم - إلهاً جديداً هو وحده الذى يستحق التأليه والعبادة والتقديس .

وما دام المنهج يقرر - صادقا - فى أن لكل ظاهرة سبباً ، فإن لسان حالهم يقول :

لنكتف بالسبب ونتيجته ولنستغن عن خالق السبب والنتيجة إذا كان هذا الخالق هو رب الكنيسة التى تمثله فى الحجر على العقل والعلم .

ولقد أثبت الواقع لهم أن العلم وحده هو الذى منحهم هذا التقدم الرائع الخطير ، فليكن العلم هو الخالق وهو وحده الإله الجديد . وبذلك مرق العلماء ومن ورائهم الخاصة والعامة من الدين ، وذهبوا إلى أن منجزاتهم العلمية الباهرة لا تدع لغير العلم مكانا لإله أو روح أو غيرهما من الخرافات أو أساطير ما وراء الطبيعة أو الميتافيزيقا ، لأن منجزاتهم العلميه حتمية تتلخص فى السبب والنتيجة .

وانتشر الإلحاد فى أوربا مصاحباً العلم ، فى كل بحث لعالم أو رأى لباحث أو فكر لفيلسوف ، حيث ظهرت - فى أرجاء أوربا - مذاهب عادت اللاهوت أو خاصمت الدين واشتدت على رجاله .

وإذا كانت الفلسفة الألمانية عند هيجل ، وفشته ومن إليهما قد إبتعدت عن الواقع وانصرفت عن المادة واهتمت بعالم العقل ، فإن فلسفة الفرنسيين عرفت إتجاها وضعياً نشأ على يد « أوجست كونت » ، ونما وتطور بجهود أتباعه ، كما استمرت فلسفة الانجليز تجريبية حسية على يد النفعيين من بنتام ، وجيمس مل وابنه جون ستورت مل .

وبدأت الفلسفة العملية البرجمانية فى أمريكا أواخر القرن التاسع عشر على يد جيمس وديوى ومن إليهما .

وكل هذه الفلسفات قامت على إتصال وثيق جداً بالحياة العملية واستمسكت بالواقع وتشبثت بالمادة وانصرفت عن النظر المجرد إلى الدنيا اليومية وجاهرت — مع إستثناء البرجمانية — بعدائها للدين واستخفافها باللاهوت وسخريتها من رجاله .

فالوضعية الفرنسية حسية مادية ربطت الفكر بمصلحة الإنسان وعلقت قيمة المعرفة على مدى ما تحققه من منافع وما تبعده من مضار — فيما يقول كونت وأتباعه .

والتجريبية البريطانية كان أظهر ما يميزها طابعها الشعبي واتصالها الوثيق بحياة الناس .

وأما البرجمانية الأمريكية فإنها كانت لا تفهم المعرفة فى كل صورها إلا من خلال حياة الإنسان ومصالحه .

وكانت هذه الاتجاهات على عداء مع اللاهوت ، بل خاصمت ـ عدا البرجمانية ـ الأديان خصاما عنيفاً .

فالوضعية تستبعد الميتافيزيقا من مجال البحث وتقوض أسس الدين وتهتم بعالم الحس والتجربة ، وبلغ الأمر بمؤسسها « كونت » أن وضع دين البشرية ،

وحاول أن يجعله مكان الدين المنزل والمعتمد من الكنيسة بل جاهر تلاميذه وخليفته « لافث » بضرورة نبذ كل ما يتصل بالعالم الآخر . إذ ينبغى فى نظره ألا يهتم سكان الأرض بما يقع خارجها وألا يدخلوا فى حسابهم القوى الخارقة للطبيعة والخارجة عنها وألا يشغلوا بالهم بنعيم الجنة ونار الجحيم ، بل قال إن اللاهوت مصيره الانقراض ولو استعان أهله بالبوليس ما استطاعوا إقناع الناس بعد اليوم بوجهات نظرهم (١) .

وأما الفلسفة العملية (البرجماتية) فقد سلمت بالأديان على أساس منفعتها فى حياة الناس لا على أساس أنها حق فى ذاته ، واعتناق الإنسان لدين على أمل أن يكون مفيداً نافعاً فى حياته أفضل فى نظر جيمس وأتباعه من رفض إعتناقه مخافة أن يكون زائفاً باطلا (٢) . وهذا رأى لا يرضى أحداً من رجال الأديان جميعا .

وحمل الفيلسوف الانجليزى « برتراند رسل (٣) » راية الإلحاد وتصدر موكبه وأخذ يوضح بأنه : « لا يجد لعقيدة الحياة بعد الموت ، وعقيدة الدار الآخرة للحساب والجزاء ـ مرتكزاً عليا يستند إليه ، ولقد سئل راسل : هل يحيا الإنسان بعد الموت ؟ . فأجاب بالنفى وشرح جوابه قائلا :

عندما ننظر إلى هذا السؤال من زاوية العلم وليس من خلال ضباب العاطفة نجد من الصعب اكتشاف المبرر العقلى لاستمرار الحياة بعد الموت ، فالاعتقاد

---

(١) انظر صـ ٤٢ د / الطويل أسس الفلسفة طبعة ثالثة : وصـ ٢٨٢ - ٢٨٣ من قصة النزاع بين الدين والفلسفة د / توفيق الطويل .

(٢) صـ ٢٦٥ وصـ ٢٧٥ مذهب المنفعة العامة فى فلسفة الأخلاق للطويل .

(٣) مات عام ١٩٧٠ م بعد أن عاش قرابة قرن كامل .

السائد بأننا نحيا بعد الموت — يبدو لى — بدون أى مرتكز أو أساس علمى » ولا أظن أنه يتسنى لمثل هذا الاعتقاد أن ينشأ وأن ينتشر لولا الصدى الانفعالى الذى يحدثه فينا الخوف من الموت .

لا شك أن الاعتقاد بأننا سنلتقى فى العالم الآخر أولئك الذين نكن لهم الحب يعطينا أكبر العزاء عند موتهم ، ولكننى لا أجد أى مبرر لافتراض أن الكون يهتم بآمالنا ورغباتنا ، فليس لنا أى حق فى أن نطلب من الكون تكييف نفسه وفقا لعواطفنا وآمالنا ، ولا أحسب أنه من الصواب والحكمة أن نعتنق آراء لا تستند إلى أدلة بينة وعلمية [١] .

وهكذا أنكر « رسل » الله واليوم الآخر وجعل الكون ظاهرة مادية بحته وأن هذه الكائنات قد نشأت عن طريق الصدفه إذ دار السديم الحار عبثا فى الفضاء عصوراً لا تعد ولا تحصى فبكانت هذه الكائنات وأن إصطداما كبيراً سيحدث فى هذا الكون يعود به كل شىء إلى سديم كما كان أولا .

وقد إستمرت هذه الاتجاهات كلها قائمه ، ثم نشأت الوضعيه المنطقيه المعاصرة التى تبنت إتجاه « دافيد هيوم » فى ضرورة إحراق كل بحث لا يقوم على الرياضه أو التجربة وانتهت بنزعتها الحسيه المادية المتطرفة إلى الاستخفاف بالأديان ورجالها ، فكانت على رأس الاتجاهات التى خاصمت اللاهوت وتجاوزته إلى معاداة الدين نفسه [٢] .

---

(١) صـ ١٦٧ - ١٦٨ صراع مع الملاحدة للاستاذ عبد الرحمن حنبكة الميلانى طبعه ثالثه سنه ١٩٧٢ دار العلم دمشق - بيروت .

(٢) صـ ٢٨٢ - ٢٨٣ من قصه النزاع بين الدين والفلسفه للدكتور / توفيق الطويل .

وهكذا أصبح العلم المادى أساساً للتنظيم الاجتماعى والتعليم الأوربى ،وغدت التجربة وسيلة لغزو الطبيعة لا لفهمها وإنما لإحلالها محل الخالق ، ولمحاربة الله جل جلاله ، وليس للاذعان لقدرته المعجزة الخلاقة .

وأصبحت القاعدة التى حكمت نظرة الإنسان الغربى للحياة والكون والتى أقامت بينه وبين خالقه حاجزاً ، وملأت قلبه بالعداء لله تبارك وتعالى – هى العلمانية – التى لم تكن سوى الوليد البكر والتكد للتزاوج الذى شهدته أوربا بين ظروفها التاريخية والجغرافية والفكرية والدينية ، وأضحت العلمانية – كما قلنا – أصل كل تفكير فى أوربا .

ولقد ناقش فكرة العلمانية وقيامها فى الغرب – كثيرون وعزوا سيطرة هذه الفكرة إلى واقع المجتمع الغربى .

يقول الدكتور محمد رضوان :

هذه الفكرة لم تنشأ فى أوربا إلا كرد فعل على الأخطاء التى ارتكبت من رجال الدين باسم الدين كاضطهاد الأقليات الطائفيه مثلا . فالتاريخ يحدثنا عن الحروب بين الطوائف الدينية إذ كانت الأكثرية الساحقة تحاول فرض معتقدها على الأقليات ، فمن هنا كان إضطهاد الكاثوليك والبروتستانت ، وكذلك كان إضطهاد اليهود [1] ، من قبل الدول المسيحيه عامه . بروتستانتيه وكاثوليكيه .

هذا الاضطهاد لم يكن ليحدث لوأن التسامح الدينى وحرية المعتقد كانا قاعدتين من قواعد الدولة الحاكمة فى ذلك الوقت .

---

(١) لقد فرضت الكنيسه على اليهود حياة خاصه فى زى خاص فى أحياء خاصه حرمت عليهم الاتصال بالمجتمع المسيحى أو المصاهرة إليه ووقف منهم الملوك والحكام موقف الاحتقار . بل والقتل أحياناً – راجع ص ٤٥ من المخطوطات التلموديه . أنور الجندى .

والأمر الذى ساعد على نجاح فكرة العلمانية فى أوربا هو عجز السلطات الدينية عن مسايرة حضارة العصر ، حتى أن بعض المفكرين لم يترددوا فى نعت الدين – عندهم – نعتاً محتقراً .

فأوغست كونت ، وليفى بريل إعتبراه لا يصلح إلا لتظيم الشعوب البدائية ، وأنه ليس سوى خطوة من خطوات الإنسانية نحو المبدأ العلمى الحديث .

كذلك فإن فكرة كارل ماركس بأن الدين أفيون الشعوب ما كانت توجد لو أن رجال الدين كانوا على المقدرة الكافية لمواجهة الحضارة الحديثه بمشكلاتها المختلفة ، فالدين برجاله فى أوربا وقف وقفة المتفرج خلال الفترة الأولى من نشوء وانتشار الأفكار والتيارات الفلسفيه المعاصرة .

فنشوء العلمانية فى أوربا جاء نتيجة الأخطاء التى أرتكبت باسم الدين ، فأثارت بعض المفكرين عليه وسمحت لهم باغتنام الفرصه لمحاربته والسعى لهدمه [١] .

وإذا كان هذا الرأى صحيحاً إلى حد ما فإننا نرجع سرعة إنتشار العلمانية بهذه الصورة إلى اليهود وتحطيمهم للاخلاق .

ولذلك روجوا مذهب التطور وأولوه تأويلات ما خطرت لداورن ، واستخدموه فى القضاء على الأديان والقوميات والفنون والقوانين باعتبار أن كل شىء بدأ ناقصاً شائهاً يثير السخرية والاحتقار ثم تطور .

فلا قداسه إذن لدين ولا قانون ولا فن ، ولا لمقدس من المقدسات وهم يعبثون بعلم الاقتصاد والاجتماع وعلم مقارنة الأديان ويسخرونها لمصلحتهم

---

(١) نقلا عن سقوط العلمانيه . أنور الجندى ص ٢١ - ٢٢ الطبعه الأولى سنه ١٩٧٣ دار الكتاب اللبنانى .

وإفساد الآداب والنظم والعقول فى كل أنحاء العالم ويدسون فيها نظريات مبهرجة لا يفطن إلى زيفها إلا الموهوبون من ذوى العقول وهم وراء كل زى من أزياء الفكر والعقيدة والملبس والسلوك إذا ما نفعهم ، لا سيما إذا كان يفسد غيرهم .

يقول الأستاذ العقاد : فى مقالة الوجودية :

لن تفهم المدارس العصرية فى أوربا ما لم تفهم هذه الحقيقة التى لا شك فيها . هى أن إصبعا من أصابع اليهودية كان وراء كل دعوة تستخف بالقيم الأخلاقية . وترمى إلى هدم القواعد التى يقوم عليها مجتمع الإنسان فى جميع الأزمان ، فاليهودى كارل ماركس وراء الشيوعية التى تهدم قواعد الأخلاق والأديان ، واليهودى دوركايم وراء علم الاجتماع الذى يلحق نظام الأسرة بالأوضاع المصطنعة ويحاول أن يبطل آثارها فى تطور الفضائل والآداب . واليهودى أو نصف اليهودى سارتر وراء الوجوديه التى نشأت معززة لاكرام الفرد فنحا بها إلى حيوانية تصيب الفرد والجماعة بآفات القنوط والانحلال .

ومن الخير أن تدرس المذاهب الفكرية بل الأزياء الفكرية كلما شاع فى أوربا منها مذهب جديد .

ولكن من الشر أن تدرس بعناوينها وظواهرها دون ما وراءها من عوامل المصادفة العارضة والتدبير المقصود (١) .

وقل مثل ذلك فى فرويد اليهودى الذى كان وراء علم النفس الذى يرجع كل الميول والآداب الدينية والخلقية والفنيه والصوفية والاسرية إلى الغريزة الجنسية

---

(١) نقلا عن الخطر اليهودى ـ محمد خليفه التونسى ص ١٠٢ وانظر ص ٩٩ ـ ١٠٠ من الاسلام والدعوات الهدامه أنور الجندى .

كى يبطل قداستها ويخجل الإنسان منها ويزهده فيها ويسلب الإنسان الإيمان بسموها ما دامت راجعة إلى ما يرى فى نفسه .

وبهذا تنحط فى نظره صلاته بأسرته ومجتمعه والكون وما وراءه وقل مثل ذلك أيضاً فى علم مقارنة الأديان الذى يحاول اليهود بدراسة تطورها ومقارنة بعض أطوارها ببعض ومقارنتها بمثلها أن يمحوا قداستها ويظهروا الأنبياء بمظهر الدجالين .

يقول أحد الباحثين :

كان من المستطاع أن تشق الفلسفة الأوربية طريقها حتى تصل إلى العلم من ناحية وإلى الدين من ناحية أخرى ، ولكن تدخلات الصهيونية واليهود منذ « سبينوزا » قد حالت دون ذلك ، وحولت دفة الفلسفة إلى المادية والإلحاد .

وقد وصف « مسكيم جوركى » أمة اليهود بأنها سيف ذهبى شهر على رأس أوربا منذ مهد المسيحية . ويقول صاحب كتاب (الخطر اليهودى [١]) مبيناً دور اليهود فى تحطيم الأديان .

وما من مبدأ أو مذهب علمى أو فلسفى يظهر فى العالم حتى يهب اليهود ليكونوا من ورائه ويتصرفوا معه بما ينفعهم ، وقد أفلحت الدعاية اليهودية فى طبع كثير من العقائد والنحل بما يحقق مصلحتها ، فترى روح الولاء والتهلل لبنى إسرائيل ومعتقداتهم تهيمن على بعض المقدسات المسيحية .

وما ظهر مذهب فكان مؤدياً إلى مسهم بالأذى إلا قتلوه ، وما كان مؤدياً إلى خير لهم إلا روجوه فى أنحاء العالم : وكذلك يروجون كل قلم ما دامت آثاره — عن قصد أو غير قصد — تساعد على إفساد الناس ورفع شأن اليهود كما فعلوا مع

---

(١) الأستاذ محمد خليفة التونسى ص ١٠١ — ١٠٢ . دار التراث .

« نيتشه » الذى يتهجم على المسيحية وأخلاقها ، ويقسم الأخلاق إلى قسمين : أخلاق سادة وأخلاق عبيد بما يتفق وروح اليهودية وتاريخها .

تغيير اليهود لمفاهيم الحيـــاة

لقد حاولت الفلسفات التى حمل لواءها اليهود تغيير مفاهيم الحياة ، وإفساد الفطرة ، إذ حاولت أن تصف الانسان بأنه حيوان وابن المصادفة وأنه لا غاية لوجوده ولا هدف ، وترتبت على ذلك أنه لا معنى للحياة الانسانية ولا للمثل العليا وأن الحياة تخبط ليس فيها إلا الطعام والجنس ، وبذلك طغى طابع المادية على علوم النفس والأخلاق والتربية والفن وهاجم ماكس وفرويد ودوركايم — وهم جميعاً من اليهود — الدين فقال ماركس :

« إنه أفيون الشعوب ومجموعة الأساطير » .

وقال فرويد :

« إنه ناشيء من الكبت » .

وقال دوركايم :

« إنه ليس فطرة [١] » .

ولقد نجح اليهود فى نشر الالحاد فى أرجاء أوربا ، فظهر كثير من المفكرين والفلاسفه الذين ينكرون الله جل جلاله ، أو ينكرون صلته بالكون ، بل

---

(١) ص ١٠١ الاسلام والدعوات الهدامة — أنور الجندى و ص ١٥١ من المخططات التلمودية الصهيونية . أنور الجندى — دار الاعتصام و ص ٧٧ الاسلام والشيوعية د / عبد الحليم محمود . دار التراث العربى و ص ٥ ١حركات ومذاهب فى ميزان الاسلام . فتحى يكن مؤسسة الرسالة .

ولا يعترفون بقدرته سبحانه وتعالى ، ويجعلون العلم أو المادة محل الاله ومكان الخالق تبارك وتعالى ، أو يشكون فى الدين وأصالته ، ولذا فقد كثر الالحاد وانتشر .

يقول العلامة « جود » :

لا أستطيع أن أعد أكثر من ستة من معارفى ممن أعدهم مؤمنين بالمسيح والمسيحية، فى حين أستطيع أن أعد بسهولة أكثر من مائة من معارفى الملحدين. ويقول أيضاً:

أصبح من النادر أن تجد مثقفا متدينا . ويقول : أصبح الذين يذهبون إلى الكنيسة هم فى الأغلب من الطاعنين فى السن أو النساء غير المثقفات وهم مع ذلك لا يزيدون على العشر .

ويقول اللورد هدلى :

إن خلو الكنائس يرجع إلى القفزات الجبارة التى قفزها العلم والخطوات السريعة الواسعة التى خطتها الثقافة فى العصر الحديث [١] .

ويقول هيوم :

لقد رأينا الساعات وهى تصنع فى المصانع ، ولكننا لم نر الكون وهو يصنع فكيف نسلم بأن له صانعا [٢] ؟ .

لقد جلى التطور العلمى للانسان كثيراً من سلسلة الأحداث التى لم يشاهدها من قبل فهو لم يكن على علم بأسباب شروق الشمس وغروبها حتى زعم أن هناك قوة فوق الطبيعة تجعلها تشرق وتغرب وها قد عرفنا اليوم أن شروق الشمس وغروبها يحدث لدوران الارض حول نفسها ، وبذلك انتهت ضرورة القول بهذه

---

(١) نقلا عن الجفوة بين العلم والدين ص ١١ محمد على يوسف .

(٢) ص ٣٨ الايدلوجيات والفلسفات المعاصره . أنور الجندى .

الطاقة تلقائيا بعد ما عرفنا الأسباب المؤدية إلى هذه الحركة الكونية ، فإذا كان قوس قزح مظهراً لانكسار أشعة الشمس على المطر ، فلماذا يدعونا إلى القول بأنها آية الله فى السماء .

من أجل هذا كله وغيره قال هكسلى :

إذا كانت الحوادث تصدر عن قوانين طبيعية فلا ينبغى أن ننسبها إلى أسباب فوق الطبيعة [١] .

ويقول أرنست هيكل : إيتونى بالهواء وبالماء وبالاجزاء الكيماوية وبالوقت وسأخلق الانسان [٢] .

ويقول « لينين » :

ليس صحيحا أن الله هو الذى ينظم الأكوان ، إنما الصحيح أن الله فكرة خرافية إختلقها الانسان ليبرر عجزه ، ولهذا فإن كل شخص يدافع عن فكرة الله إنما هو شخص جاهل وعاجز [٣] .

ويصور أبو الأعلى المودوى مدنية أوربا الالحادية فيقول :

إن الذين يريدون الرقى نبذوا الدين بالعراء ، واختاروا طريقا لم يكن دليلهم فيها إلا المشاهدة والاختبار والقياس والاستقراء ، ووثقوا بهذه الدلائل التى هى فى حاجة بنفسها إلى الهداية والنور ، وجاهدوا واجتهدوا باحتذائها فى طرق الفكر والنظر والتحقيق والاكتشاف والبناء والتنظيم ولكن ضلت خطوتهم

---

(١) ص ٢٧ - ٢٨ الاسلام يتحدى : وحيد الدين خان .
(٢) ص ٧٨ من المصدر السابق .
(٣) ص ١٥ حركات ومذاهب فى ميزان الاسلام ، فتحى يكن - مؤسسة الرسالة .

الأولى فى كل جهة وفى كل مجال ، وانصرفت فتونهم فى ميادين العلم والتحقيق ومحاولاتهم فى سبيل الفكر والنظر إلى غاية لم تكن صحيحة .

إنهم بدأوا وساروا من نقطة الإلحاد والمادية ، نظروا فى الكون على أنه ليس له إله ، نظروا فى الآفاق والأنفس على أنه لا حقيقة فيها إلا المشاهد والمحسوس ، وليس وراء هذا الستار الظاهر شيء .

إنهم أدركوا نواميس الفطرة بالاختبار والقياس ، ولكنهم لم يتوصلوا إلى فاطرها .

إنهم وجدوا الموجودات مسخرة واستخدموها لأغراضهم ، ولكنهم جهلوا أنهم ليسوا سادتها ومدبريها، بل هم خلفاء سيدها الحق. فلم يروا أنفسهم مسئولين عنها . ولم يروا على أنفسهم عهدة وتبعة فاختل أساس مدنيتهم وتهذيبهم وانصرفوا عن عبادة الله إلى عبادة النفس واتخذوا إلههم هواهم وفتنتهم عبادة هذا الاله وسارت بهم هذه العبادة فى كل ميدان من ميادين الفكر[١] .

---

(١) المودودى فى كتابه « تنقيحات » نقلا عن أبى الحسن الندوى . ماذا خسر العالم من انحطاط المسلمين ص ٢٤٦ .

المادية تسيطر على أوربا

وقد سيطر المذهب المادى — كنتيجة للعلمانية وجهود اليهود — على الفكر الغربى كله . وأصبح اليوم هو أساس للفكر الغربى الليبرالى والفكر الماركسى جميعاً ، وأصبح التفسير المادى للتاريخ مفهوما شاملا معترفا به .

وأصبحت هناك معارضة شاملة للروحية والمعنوية والمثالية ، وأصبح التفسير المادى للسلوك وللحياة والمجتمعات وللتاريخ هو الأساس . بل إن المادية أعلنت أن العقل صفة طارئة لبعض حالات المادة ، وأن العقل يولد من المادة فهو مدين لها ، وأصبح الفكر الغربى فى قمة ماديته يؤمن بأن النداء الجنسى والنداء الخاص بالطعام هما اللذان يحكمان البشرية كما أن المادية تجحد وجود الخالق وتنكر الروح والبعث والجزاء .

ولقد كان لهذا كله أثره البعيد فى التربية والأخلاق والمجتمع والاقتصاد حيث كانت كلمات الحرية والتحلل والإباحة والربا والدعوة إلى السعادة واللذة والتمتع بالحياة والانطلاق إلى عالم الشهوات ، بدعوى أنه لا توجد حياة أخرى بعد هذه الحياة .

وحتى الأدب نفسه لم يسلم من مؤمرات اليهود .

يقول « بوكهارت » :

إن الأدب العالمى قد يكون مديناً لبعض كتاب اليهود ، ولكن شرهم أكثر من نفعهم وإثمهم أكبر من خيرهم فإن « هينة » أفسد أخلاق باريس و « أزوقالد » أنذرنا بقرب زوال الحضارة .

أما « فرويد » فقد خلق الإباحة الحديثة على نمط الوثنية الاغريقية ، ومجد الغريزة وأطلق عنان الشهوات البشرية ورخص للرجل والمرأة أن يفعلا بجسديهما ما شاء لهما الشبق الكامن فى خبايا ضلوعهما فالتهتك الجنسى لا حد له فى رأيه ، والولد يغار على أمه من أبيه ويود لو يموت الولد ليحل محله (مركب أوديب) .

أما الأحلام فلا تفسير لها إلا الاغتلام وعلاقة الجنس .

« وتوماس مان » برر عشق الذكور (قصة الموت فى البندقية) ووصف مرض الصدر بحيوانات مفترسة تتخذ من يأس الشفاء عذراً للفساد ، فمصحات الجبال مواخير للمرضى تحت مراقبة الأطباء [قصة الجبل المسحور][١] .

ولقد وصفت كاتبة أمريكية فى مؤتمر برلين هذا الأدب بقولها :

إن الأدب الغربى مرآة فى سقف بيت الدعارة[٢] .

***

وهكذا لم تجد أوربا من العلمانية وإبعاد الدين عن كل شأنه من شئون الحياة غير الإلحاد والفساد والمرارة والرذيلة ، حتى أضحت مدنيتها مادية بحتة وأصبحت لا تطاق ، ولنسمع إلى تعبير أبى الأعلى المودودى وهو يصور شجرة العلمانية والمادية وتفرعها إلى كل فكر أوربى إذ يقول :

إن أهل الغرب الذين غرسوا هذه الشجرة الخبيثة — العلمانية والمادية — قد مقتوها وأصبحوا يتذمرون منها ، لأنها خلقت فى كل ناحية من نواحى حياتهم مشاكل وعقداً لا يسعون لحلها إلا وظهرت مشاكل جديدة ، ولا يفصلون فرعا

---

(١) الإسلام والمذاهب الهدامة ـ أنور الجندى ص ١٠٠ ، ١٠١ .

(٢) الايدلوجيات والفلسفات المعاصره ـ أنور الجندى ص ١٨٢ .

من فروعها إلا وتطلع فروع كثيرة ذات شوك ، فهم فى معالجة أدوائهم وإصلاح شئونهم كمعالج الداء بالداء وناقش الشوكة بالشوكة .

إنهم حاربوا الرسمالية فنجمت الشيوعية ، إنهم حاولوا أن يستأصلوا الديمقراطية فنبعت الدكتاتورية . أرادوا أن يحلوا مشاكل الاجتماع ، فنبتت حركة تذكير النساء وحركة منع الولادة .

أرادوا أن يشترعوا قوانين لاستئصال المفاسد الخلقية ، فاشرأبت حركة العصيان والجناية فلا ينتهى شر إلا إلى شر ولا فساد إلا إلى فساد أكبر منه .

ولا تزال هذه الشجرة المادية والعلمانية — تثمر لهم شرورا ومصائب حتى صارت الحياة الغربية جسداً مقروحا يشكو كل جزء منه أوجاعا وآلاما ، وأعيا الداء الأطباء واتسع الخرق على الراقع ، فالأمم الغربية تتململ ألما ، قلوبها مضطربة ، وأرواحها متعطشة إلى ماء الحياة ولكنها لا تعلم أين معين الحياة ؟

إن الأكثر من رجالها لا يزال يتوهم أن منبع المصائب فى فروع هذه الشجرة فهم يفصلونها ويستأصلونها من الشجرة ويضيعون أوقاتهم وجهودهم فى قطعها .

إنهم لا يعلمون أن منبع الفساد فى أصل الشجرة . ومن السفاهة أن يترقب الإنسان أن ينبت فرع صالح من أصل فاسد .

ثم يقول : وفيهم جماعة قليلة من العقلاء ، أدركوا أن أصل حضارتهم فاسد ولكنهم لما نشأوا أعواماً طويلة فى ظل هذه الشجرة ، وبأثمارها نبت لحمهم ونشز عظمهم ، كلت أذهانهم عن أن يعتقدوا أصلا آخر غير هذا الأصل يستطيع أن يخرج فروعا وأوراقا صالحة سليمة وكلا الفريقين فى النتيجة سواء .

إنهم يتطلبون شيئا يعالج سقمهم ويريحهم من كربهم ، ولكنهم لا يعلمونه ولا مكانه[١] .

والحقيقة أن المادية إذا انتشرت بين الأمم وتمكنت منها قضت على كل خير فيها وباعدت بينها وبين الفضائل وبثت فى أرجائها كثرة من المفاسد والشرور .

وها هو جمال الدين الأفغانى يوضح أضرار المذهب المادى على المجتمع وذلك بذكر أمثلة من تاريخ الجماعات المختلفة التى سيطر عليها هذا المذهب فى فترة من تاريخ حياتها ، ويرى أن المذهب الطبيعى المادى قد برز فى صور متعددة على النحو الآتى :

(ا) مذهب (أبيقور) فى الشعب الاغريقى[٢] .

(ب) مذهب (مزدك) فى الشعب الفارسى[٣] .

(ح) مذهب (الباطنية) فى الجماعة الإسلامية[٤] .

(د) مذهب (فولتير وروسو) فى الشعب الفرنسى[٥] .

(ه) مذهب (العصر الجديد) فى تركيا[٦] .

(و) مذاهب (الاشتراكية والقومية والاجتماعية) فى أوربا وبخاصة فى

---

(١) المودودى فى تنقيحات مقالة أمم العصر المريضة ص ٢٥ - ٢٦ وانظر أبى الحسن الندوى - ماذا خسر العالم من إنحطاط المسلمين ص ٢٤٧ - ٢٤٨ .

(٢) الرد على الدهريين ص ٨٢ - ٨٣ .

(٣) المصدر السابق ص ٥٠ .

(٤) المصدر نفسه ص ٥٤ .

(٥) المصدر نفسه ص ٩٦ .

(٦) المصدر نفسه ص ٦٣ .

الشعب الروسى[١] .

ويقول جمال الدين شارحا ذلك :

« إن حياة الشعب الاغريق فسدت بإباحية المذهب الابيقورى ، وكذلك فسدت الحياة فى الشعب الفارسى عندما تأثرت بمزدك .

والمسلمون[٢] عندما دخلت عليهم الباطنية[٣] ، ثم يقول :

والفرنسيون فى القرن الثامن عشر كانت لهم أخلاق فاضلة قوامها الترابط وعدم الانحلال حتى ظهر فولتير وروسو وسخرا من الدين والإله ، فبدأ التحلل على أشده ، وآراؤهما هى التى أضرمت نار الثورة الفرنسية ، وأفسدت أخلاق الكثير من أبنائها ، فاختلفت بها المشارب وتتابعت المذاهب .

وقام على مذهب فولتير وروسو مذاهب (كومن) الاشتراكية[٤] . ولو تدارك الأمر أرباب العقائد النافعة لنسفت الاشتراكية على أديم فرنسا .

---

(١) المصدر السابق ص ٦٦ .

(٢) الرد على الدهريين ص ٦٧ — انظر الفكر الإسلامى د / محمد البهى ص ٨١ .

(٣) وذلك فى القرن الرابع الهجرى حيث أفسدت حياتهم .

(٤) كان الافغانى يعبر عن الشيوعية بالاشتراكية . انظر ص ٨٣ من الفكر الاسلامى الحديث د/ محمد البهى .

أثر المادية فى التربية

سيطرت المادية على الحياة فى أوربا وكانت التربية فى الغرب هدفاً من أهداف الإلحاد المادى والهدم اليهودى فتحولت من الفكر المسيحى إلى الفكر المادى وتبلورت فى صورتها النهائية فى مفاهيم « ديوى » و « دوركايم » ، وعلى ما قرره « فرويد » ومدرسته فى النفس والجنس ، وهى مفاهيم تقوم فى أساسها على حرية التربية وإطلاقها من كل قيد ورفع الرقابة والتوجيه عن الأجيال حتى فى أكثر المراحل تعرضا للأخطار .

ولقد نجحت دعوات تحرير التربية من سلطان الدين فى أوربا إلى فصل الدين عن التعليم نهائياً والحيلولة بين رجال الدين وبين مناهج التربية والتعليم فى نفس الوقت الذى أضيفت فيه الفلسفات المادية من أجل تخريج أجيال لا صلة لها بالدين أو القيم الروحية إطلاقاً ، وتشكيل مفاهيم الأخلاق على النحو الذى يفترض تطورها بتطور المجتمعات هذا بالإضافة إلى تدريس الجنس وإذاعة الأدب المكشوف ونشر قصص الغرائز وكل ما يتصل بهدم الأخلاق والقيم والمثل العليا .

ويتحدث الدكتور فاضل الجمالى عن فلسفة التربية الغربية فيقول :

إن نظم التربية الغربية قد تكون فى الغالب مبنية على فلسفات ذات صفة ثنائية أو إنشطارية فهى فلسفات تفصل الدين عن الدولة والروح عن الجسد والفرد عن الجماعة .

فالدراسات العلمانية مثلا قد تؤدى بسهولة إلى اتجاهات فكرية مشككة أو مادية أو ملحدة أو عدمية .

ونحن نعتقد أن الفلسفة الانشطارية أو الثنائية فى التربية الغربية تصبح لغة فى

حية الانسان حين ينفصل الدين عن الدولة والروح عن الجسد والفكر عن العمل والعلم عن الدين .

إن التربية الغربية فضلا عن حاجتها إلى الوحدة والترابط يعوزها الانسجام والتوفيق بين نواحى الوجود أيضاً .

إن الغرب قد أنجب علماء عظاماً وأخلاقيين كباراً وفنانين مبدعين وأدباء مجيدين وكل واحد يمتاز فى حقل اختصاصه ، ولكن الواحد منهم قلما يعنيه التوافق والانسجام مع المجموع ، كل واحد يتعمق فى حقل اختصاصه بدرجة متناهية بدون أن يكون له تماس مع الاختصاصات الأخرى أو اكتراث بوجه نظر أصحابها ، فالعالم مثلا لايهمه كثيرا مصير القيم الأخلاقية ، والسياسى والإدارى قد يصوغ مقاييسه الأخلاقية العمليه الخاصه به ، وتربية الفكر قد لا تسير جنبا إلى جنب مع بناء الأخلاق الفاضلة وتقديم الذوق الجميل .

وفى التربية الغربية اللادينية خطر جسيم ينجم عن نسيان خصائص الإنسان الروحية والاكتفاء بالتأكيد على نواحى حياته الجسدية والاجتماعية والسياسية والفكرية .

إن أهم نقائص التربية الغربية هو فقدان الانسجام بين المتطلبات الزمنية للانسان والمتطلبات الخلقية الروحية [١] .

وكان أثر هذه التربية ـ مع العلمانية والمادية ـ خطيرا على كل مجالات الحياة وعلى سبيل المثال سوف نذكر جوانب من هذه الآثار المدمرة للتربية الغربية .

(١) نقلا عن الايدلوجيات والفلسفات المعاصره فى ضوء الاسلام ص ٢٤٧ و ٢٤٨ ـ أنور الجندى ـ دار الاعتصام .

اثر التربية العلمانية فى المجتمع

وتبعاً لهذه الفلسفة فى التربية الغربية تحطمت روابط المجتمع وروابط الاسرة بل وروابط الجنس ذاته . فلم يعد الجنس — بصرف النظر عن الأخلاق — رباطا مقدسا يربط بين رجل وامرأة بالعواطف الممتدة الطويلة الأمد والمشاعر المشتركة وإنما أصبح لحظة جسد مهومة تنقطع بإشباع شهوة الحيوان واعتبرت العواطف والمشاعر « رومانتيكية » مريضة لا تعيش فى الواقع وإنما الواقع هو هذا الحيوان .

وفسد كيان الرجل والمرأة كليهما ، فلم يعودوا رجلا وامرأة كما خلقهما الله !

فأما الرجل ـ وقد فقد روابطه الاجتماعية وضعفت فى نفسه روابط الاسرة وروابط الجنس ذاته ـ فقد أصبح شيئا أقرب إلى الآلة منه إلى الإنسان ... آلة منتجة ولكنها لا تكاد تفكر أو تحس ، وإنما تعيش الحياة لحظة لحظة بلا هدف شامل ولا وعى بإنسانية الإنسان .

ثم إذا فرغ من الانتاج المادى الذى يكيف كيانه الحى ويطمس إشعاعة الروح فيه انطلق فى حيوانية هابطة يشبع دوافع الحياة ، وتتحول الحياة فى نظره إلى هذين الهدفين الهابطين :

— إنتاج كالآلة .

— وإنطلاق كالحيوان[1] .

---

(١) جاهلية القرن العشرين ـ محمد قطب ـ ص ١٦٣ ـ مكتبة وهبة — الطبعة الأولى .

ولا تختلف المرأة فى — هذا الحال — عن الرجل كثيراً .

يقول « وِل ديورانت » الفيلسوف الأمريكى(١) وهو يتحدث عن الرجل والمرأة فى المجتمع الحديث :

ولما كان زواجهما ليس زواجاً بالمعنى الصحيح لأنه صلة جنسية لا رباط أبوة فإنه يفسد لفقدانه الأساس الذى يقوم عليه .

يموت هذا الزواج لانفصاله عن الحياة وعن النوع وينكمش الزوجان فى نفسيهما وحيدين كأنهما قطعتان منفصلتان ، وتنتهى الغيرية الموجودة فى الحب إلى فردية يبعثها ضغط المسافر .

(١) فى كتابه مباهج الفلسفة ص ٢٢٥ .

أثر التربية العلمانية فى الأخلاق

لقد فسدت أخلاق أوربا كنتيجة طبيعية للعلمانية التى نحت الدين نهائيا عن كل شئون الحياة ، فانفصلت سياسة أوربا عن الدين والأخلاق ، واتخذت شعارها المعروف : الغاية تبرر الوسيلة .

وتفلت الاقتصاد أيضا من الأخلاق ، فقامت الرأسمالية على الربا المحرم فى المسيحية واليهودية من قبل ، وما تبع ذلك من ظلم واستغلال . وظهرت نظريات علمية تقول :

إن الاقتصاد له قوانينه الخاصة وقوانينه الحتمية التى لا علاقة لها بالأخلاق بل لا علاقة لها بالناس على الاطلاق .

ثم أخذ الجنس — بعد السياسة والاقتصاد — ينفصل أيضا عن الأخلاق . وغرقت أوربا فى مستنقعه الآسن إلى أذنيها .

ولقد جاء وقت فتن الناس فيه بقضية الأخلاق فى الغرب حين رأوا هذه الاخلاق صامدة راسخة ، لا تتأثر بفساد السياسة والاقتصاد والفساد الجنسى ، وغابت عنهم فى الوقت ذاته دلالة الانانية والنفعية فى هذه الاخلاق ، فحسبوا أن الاخلاق يمكن أن تنفصل عن معينها الدينى وتظل حية فاعلة فى واقع الأرض ، وأن الامور التى إنفصلت عنها لم تكن من أصولها . . . وأنها ستبقى هكذا أبداً مهما فسدت أمور السياسة والاقتصاد والجنس (أو تطورت أو خضعت للحتمية) ومهما طغت الروح المادية والنفعية والأنانية على الناس[١] .

---

(١) جاهلية القرن العشرين - محمد قطب ص ١٩٠ - ١٩٧ .

وكان هذا التصور خاطئاً ، فإن أثر الانحراف الخلقي يأتي بطيئاً ، ولكنه يكون خطيراً ، والتاريخ خير شاهد على ذلك .

فعندما انتشر الفساد الاخلاقي في فرنسا عامة وفي ميدان الجنس خاصة حتى إذا ما جاءت الحرب كانت فرنسا ماخورا كبيرا غارقا في حمأة الجنس المسعور . ولذلك إنهارت أمام أعدائها في أيام ... لا لأنها لاتملك السلاح - فقد كانت أفتك الأسلحة معها - وكانت تحصينات « ماجينو » أشد ما عرف في ذلك الحين .

ولكن لأنها كانت لا تملك الروح التي تحارب أو الكرامة التي يدافع الانسان عنها .

ولم تكن فرنسا هي التي أنهكها الفساد وحدها ، ولكن حدث هذا في إنجلترا أيضا ، ولازلنا نذكر الفضيحة الكبرى التي حدثت في إنجلترا منذ وقت ليس ببعيد واتهم فيها وزير الحرب بإذاعة أسرار عسكرية هامة تعرض وطنه للخطر في مقابل قضاء ليلة حمراء مع فتاة ساقطة تحيط نفسها بجو من الدعارة يسقط فيه الامراء والوزراء(١) .

ولذلك فقد بلغ الاطفال غير الشرعيين - كثمرة من ثمرات عصر العلمانية - في أوائل الخمسينات نصف مليون في إنجلترا وحدها(٢) .

وانتشر اللواط في بعض المجتمعات الاوربية ومنها - على سبيل المثال - المجتمع الانجليزي الذي أضاعت فيه المرأة أنوثتها ، ففقدت بذلك قيمتها كمطلب

---

(١) التطور والثبات في حياة البشر - محمد قطب ص ١٧٣ - دار الشروق .
(٢) أصول التربية الإسلامية - الاستاذ عبد الرحمن النحلاوي - دار الفكر دمشق - طبعة أولى ١٩٧٩ .

سام ، فاستغنى الرجال عنها بالرجال ، وظهر الانحراف الجنسى وضاع المجتمع البريطانى ، المجتمع الذى سيطر على بحار الدنيا فى يوم من الأيام ، المجتمع الذى كانت الشمس لا تغرب عن ممتلكاته .

ضاع المجتمع البريطانى فأصبحت بريطانيا دولة من الدرجة الثانية أو الثالثة ومن يدرى فقد تصبح من الدرجة الرابعة[١] .

وإذا نظرنا إلى أمريكا وروسيا فسوف نجدها أسوأ من فرنسا وإنجلترا ، وسنجد قادة هذه البلاد — ومنهم الملحد الذى لا يعترف بخلق أو دين — يحذر شباب بلاده من الكارثة ، ويبين أن الشباب قد جاوز المدى فى إنحلاله وأنه فى طريقه إلى الانهيار .

قال خرشوف :

إن الشباب الشيوعى قد بدأ ينحرف ويفسده الترف وأن من بينه « عصبجية وصيعا » وأنذر بأن الحكومة السوفيتية تبحث إطلاق يد البوليس فى معالجة هؤلاء البلطجية ، كما أنذر بأن معسكرات جديدة قد تفتح فى سيبريا للتخلص من هؤلاء الشباب المنحرف ، لأنه خطر على مستقبل روسيا .

وقال كيندى :

إن الشباب الأمريكى مترف غارق فى الشهوات وأنه من بين كل سبعة شبان يتقدمون للتجنيد يوجد ستة غير صالحين بسبب إنهماكهم فى الشهوات .

وأنذر بأن هذا الشباب خطر على مستقبل أمريكا ، وأهاب بالعلماء والمصلحين

---

(١) مكانة المرأة فى الاسلام د/عمارة نجيب — عدد غرة ذى الحجة ١٣٩٧ هـ مجلة الدعوة المصرية بتصرف .

الاجتماعيين أن يبحثوا هذا الخطر ويقرروا العلاج[1] .

وسبب هذه الانحرافات كلها لأن الانسان الاوربى قد عمى عن حقيقة الحياة والكون ولم يشاهد منها إلا الجانب الظاهر للحس ، ولذلك إختل التوازن فى داخل كيان الانسان ، كما يختل مسار الكوكب لو حجبت عنه فجأة بعض عناصر الجاذبية وترك لبعضها الآخر .

وقد اختل بالفعل توازن الانسان فى هذا العصر فجذبته الأرض بكل عنفها حين إنقطع عن جاذبية السماء ، وحين صاغ حياته ـ من جديد ـ على واقع العلمانية فلما حدث « الفصام النكد » فى الغرب بين الانسان وربه جل جلاله ، وبين الدين والحياة ، إنكفأ الانسان على وجهه يهيم فى الأرض باحثاً عن اللذة والمتعة والقوة بلا هدى يعصمه من السعار .

والسعار المحموم الذى يغشى المدنية اليوم هو النتيجة الحتمية لذلك الفصام بين الدين والحياة ..

هذا الفصام هو الذى أتاح للتوجيه اليهودى أن يدخل المعركة لتدمير المسيحية وتدمير الأميين بصفة عامة .

وهذا الفصام هو الذى أقام الانقلاب الصناعى فى صورته المادية الخالصة التى لا ترعى قواعد الاخلاق ولا قواعد الانسانية .

وهذا الفصام هو الذى أخرج المرأة من وظيفتها الفطرية الأولى إلى المصنع والمتجر والطريق .. وأخرجها للاغراء والغواية لتحطيم ما بقى فى الحياة من علوية ورفعة .

---

(١) ص ١٩٧ محمد قطب ـ جاهلية القرن العشرين ـ وانظر أيضا ص ١٧٣ محمد قطب ـ التطور والثبات فى حياة البشر .

وهذا الفصام هو الذى سخر العلم فى طريق الشر (إلى جانب ما يؤديه من خدمات للبشرية) فأفسد الامم والافراد .

وهذا الفصام هو الذى جعل صورة الانسان مشوهة ممسوخة فقامت نظم التربية ونظم السياسة ونظم الاقتصاد ونظم المجتمع والفنون تغذى هذه الصورة الممسوخة وتمد لها فى التشويه .

وهذا الفصام بين الدين والحياة - فى إيجاز شديد - هو الذى أنشأ كل ما فى الغرب من فساد[١] .

---

(١) ص ٢٨٥ ومابعدها من كتاب التطور والثبات - محمد قطب - طبعة رابعة ١٩٨٠م - دار الشروق .

علمانية أوربا فى ميزان النقد

هل سعدت أوربا بالعلمانية ؟

رأينا — فيما سبق — أن أوربا قد خلعت رداء الدين عنها وأبعدت تعاليمه عن حياتها ، ونحت أوامره عن كل شأن من شئون دنياها ، وأبقت الدين فى حيز ضيق كعلاقة فقط بين المرء وربه ، ثم إرتدت ثوب العلمانية الجديد بألوانه اللادينية الخادعة البراقة ، وشكلت حياتها على منوال نسجه وهى تشوى به فرحة بجمال لونه مأخوذة بخطوطه المتعددة تمشى به مشية الخيلاء والزهو والكبرياء ، وفى سبيل حرصها عليه ، وفى غمرة سرورها به ، فتنت بالعقل تاره وعبدت المادة تاره أخرى ، وفى كل نهج من حياتها وفى كل أمر من أمورها وفى كل إبتكار من إبتكاراتها لا تذكر الله جل جلاله قليلا أو كثيراً .

وهنا يتردد سؤال على ألسنة المخلصين من أبناء الإنسانية قائلا :

ترى هل سعدت أوربا بالعلمانية حين ارتدت ثوبها الجديد ؟

وهل حققت أوربا - بالعلمانية - ما أرادت عندما أعرضت عن دينها ؟

وهل جنت أوربا - من العلمانية - الخير أو الشر ؟

وهل حققت أوربا لنفسها - بالعلمانية - الصلاح أو الفساد ، والإصلاح أو الافساد ؟

وبعباره أخرى موجزه : ماذا أخذت أوربا من العلمانية ؟

وحقيقة الأمر أن الإجابة على هذه التساؤلات شىء ميسور وواضح وضوح الشمس فى رابعة النهار ، وخاصة بعد أن وقفنا على ما أصاب أوربا بعد العلمانية

من آثار مدمرة فى كل ناحية من نواحى حياتها الخلقية والسياسية والأدبية والعقدية والاجتماعية والاقتصادية .

ومع هذا فلا بأس أن نترك علماء أوربا وفلاسفتها يجيبون هم على هذه التساؤلات ... نتركهم يتكلمون ثم نحكم - بعد أن نقف على أجوبتهم وبعد النظرة الفاحصة - ونقرر هل سعدت أوربا أو وقعت فى مستنقع الشقوة والتعاسة .

وهل أخذت أوربا من العلمانية سعداً وصلاحا أو جنت فساداً ودماراً ؟

أجل سيكون الحكم من أنفسهم لا أنفسنا حتى لا نتهم بأننا وقفنا موقف المتجنى على أوربا أو كنا منحازين أو غير منصفين ، ولأن شهادتهم - على حضارتهم - لها قيمة كبرى - وشهد شاهد من أهلها - للحق والتاريخ .

وتعالوا نستعرض أقوال مفكرى أوربا لنرى ماذا حققت لهم العلمانية .

وها هو « هارولد لاسكى » المفكر البريطانى المعروف يقول :

إن عالم اليوم يعانى من الشعور العميق بخيبة الأمل ، وقد انتشر هذا الشعور فى أماكن كثيرة ، ويبدو أن جيلنا فقد قيمته !

لقد حل الشك السافر محل اليقين ، وحل اليأس محل الأمل ، ويبدو أن الاتجاهات الحديثة فى الفن والأدب والموسيقى لا تعترف بالتراث الذى أبدع روائع الماضى ... والحرب قد سددت ضربتها القاضية للمعتقدات الدينية التى كانت مقياساً دائماً للسلوك ، ويبدو أن الكنائس أصبحت وسيلة للقيام بطقوس شكلية بدلا من التأثير على معتقدات الناس .

إن رغباتنا تتسم كلها بطابع السرعة المحمومة وبطابع التهور والافتقار إلى الطمأنينة ، لقد انتصرت روح الإنكار على روح اليقين ، إننا عدمنا — فى

كل مكان — تلك السكينة أو الثقة بالنفس التى تجعل الأفراد يختارون حلا من الحلول ليجعلوه موضع عبادة .

إن منهج الغرب فى الحياة قد وضع فى بوتقة الانصهار وتحولت العلوم - سواء علوم الطبيعة أو علوم الاحياء - إلى معلومات ميتافيزيقية ، وإذا ماكانت قد صارت فى يد « إدنجتون وجينز » مثلا جزءاً من رد الفعل شبه التلقائى إلا أنها تفتقر إلى الهدف . فهى لا تقدم لنا شيئاً غير تلك القيم التى تشيع الفوضى فى كل جزء من أجزائها ، وفى مقدور هذا العلم أن ينتج الرفاهية المادية ، ولكن يبدو أنه عاجز عن اكتشاف مبادىء الرضا الروحى .

هذه كلمات دقيقة فى وصف سيكلوجية المجتمع الغربى ، وصاحب هذا الوصف ليس من دعاة الدين .

ومن أجل ذلك أوردنا تقريره - إنه يقول :

ومنذ قرن مضى كان فى مقدور الدين أن يتيح للكثيرين الأمل فى تعويض ما نالهم من الحياة وذلك فى الحياة الأخرى ، أما الآن فقد أطفأ العلم أنوار السماء ولا طريق للخلاص إلا فى ظل الحاضر العاجل .

ومنذ قرن مضى رأى الناس بارقة أمل فى الطاقة الصناعية الجديدة . والآن وبالرغم من مزاياها الهائلة يتضح أن الطاقة المادية التى تستطيع أن تشكل الطبيعة لخدمة أغراضنا - دون أن يساندها مبدأ ما - لن يصبح لها أى معنى إلا إذا كان لهذه الطاقة هدف معروف [١] .

---

(١) ص ٧٣ — ٧٤ نقلا عن — فتحى عثمان — الدين فى موقف الدفاع مطبعة وهبه .

ويقول « إديك فروم » :

تميزت الثقافة الغربية فى القرون القلائل الأخيرة بروح المباهاة والتفاؤل . فهى تباهى بالعقل باعتباره أداة الإنسان لإدراكه الطبيعة وسيطرته عليها ، وتتفاءل بتحقيق أعز آمال البشرية وتوفير أكبر قسط من السعادة لأكبر عدد من الناس ، وقد برر الانسان لنفسه ما يباهى به .

فبفضل العلم بنى عالما ماديا يفوق فى الواقع حتى الاحلام والرؤى فى القصص الخيالية والمدن الفاضلة ، إنه يستغل طاقات الطبيعة التى سوف تمكن الجنس البشرى من توفير الظروف المادية اللازمة .

غير أن الانسان الحديث برغم هذا يشعر بالقلق وبالحيرة المتزايدة ، إنه يعمل ويجاهد ولكنه يدرك إدراكا غامضا عبث ما يبذل من نشاط . وبينما تنمو سيطرته على المادة نجد أنه يحس العجز فى حياته الفردية وفى المجتمع . وبينما نراه يبتدع « وسائل » يسيطر بها على الطبيعة ، نجده واقعاً فى حبائل تلك الوسائل ، وقد فقد إدراك الغاية التى تعطيها — وحدها أهميتها — وتلك الغاية هى : أن الانسان لنفسه ، فبينما أمسى الانسان سيداً على الطبيعة بات عبداً للآلة التى صنعها بيده ، وبرغم كل ماعرفه عن المادة فهو على جهل فيما يتعلق بالمشكلات الهامة الاساسية الخاصة بالوجود البشرى .

إن الازمة الانسانية المعاصرة قد أدت إلى التراجع عن الآمال والآراء وأمست فكرة التقدم ذاتها وهماً صبيانياً(١) » .

---

(١) ص ١٨٢ - ١٨٣ آراء فلسفية فى أزمة العصر تأليف إدوين كوخ ترجمة محمد محمود — مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٣ .

ويقول الدكتور « الكسيس كاريل »[١] فى كتابه المشهور « الإنسان ذلك المجهول » :

إن الحضارة العصرية تجد نفسها فى موقف صعب لأنها لا تلائمنا .

لقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية ، إذ أنها توفرت من خيالات الاكتشافات العلمية وشهوات الناس ونظرياتهم ورغباتهم .

وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا[٢] ويقول :

يجب أن يكون الإنسان مقياساً لكل شيء ، ولكن الواقع هو عكس ذلك فهو غريب فى العالم الذى إبتدعه ، إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه لأنه لا يملك معرفة عملية بطبيعته .. ومن ثم فإن التقدم الهائل الذى أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة هو إحدى الكوارث التى عانت منها الانسانية ، فالبيئة التى ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة لا بالنسبة لقوامنا ولا بالنسبة لهيئتنا .

إننا قوم تعساء لأننا ننحط أخلاقياً وعقلياً ، إن الجماعات والأمم التى بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هى على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة فى الضعف والتى ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها ، ولكنها لا تدرك ذلك ، إذ ليس هناك مايحميها من الظروف العدائية التى شيدها العلم حولها .

---

(١) عالم عبقرى منح جائزة نوبل عام ١٩١٢ لأبحاثه الطبية الفذه ـ عمل أستاذاً فى جامعة ليون ثم رحل إلى أمريكا وعمل بمعهد روكفلر للابحاث العلمية ثلاثين عاما .

(٢) ص٣٨ الانسان ذلك المجهول تأليف الكسيس كاريل ـ تعريب شفيق أسعد ـ منشورات مكتبة المعارف ببيروت .

وحقيقة الأمر أن مدنيتنا مثـــل المدنيات — التى سبقتها — أوجدت أحوالا معينة من شأنها أن تجعل الحياة نفسها مستحيلة وذلك لأسباب لا تزال غامضة(١) .

إن الحضارة لم تفلح حتى الآن فى خلق بيئة مناسبة للنشاط العقلى .

وترجع القيمة العقلية والروحية المنخفضة لأغلب بنى الإنسان — إلى حد كبير — للنقائص الموجودة فى جوهر السيكولوجى . إذ أن تفوق المادة ومبادىء دين الصناعة ، حطمت الثقافة والجمال والأخلاق .

إن المادية البربرية التى تتسم بها حضارتنا لا تقاوم السمو العقلى فحسب بل إنها تسحق أيضا الشخص العاطفى واللطيف والضعيف والوحيد وأولئك الذين يحبون الجمال ويبحثون عن أشياء أخرى غير المال(٢) .

ويقول هذا الرجل الذى تتجمع كتاباته عند إحساس واحد هو الإحساس بخطر هذه الحضارة على الإنسان ومقوماته الذاتية وخصائصه الانسانية إنه يقول فى أثر البيئة الغربية :

إن مثل هذه البيئة تؤدى إلى انحلاله وإن العلم والتكنولوجيا ليسا مسئولين عن حالته الراهنة وإنما نحن المسئولون ، لأننا لم نستطع التمييز بين الممنوع والمشروع .

لقد نقضنا القوانين الطبيعية فارتكبنا بذلك الخطيئة العظمى التى يعاقب مرتكبها دائماً .

---

(١) المصدر السابق ص ٤٣ - ٤٤ .
(٢) المصدر نفسه ص ٣٧١ .

إن مبادىء الدين العلمى والآداب الصناعية قد سقطت تحت وطأة غزو الحقيقة البيولوجية فالحياة لا تعطى إلا إجابة واحدة حينما تستأذن فى ارتياد الأرض المحرمة .. هى إضعاف السائل .

ولهذا فإن الحضارة آخذة فى الانهيار ، لأن علوم الجماد قادتنا إلى أرض ليست لنا فقبلنا هداياها جميعاً بلا تمييز ولا تبصر ، ولقد أصبح الفرد ضعيفاً متخصصا فاجرا غبياً غير قادر على التحكم فى نفسه ومؤسساته(١) .

ويقول الأستاذ « جود » :

إن دين أوربا اليوم هو المادية لا النصرانية ، ولم يزل سائداً على عقلية إنجلترا منذ قرون شره المال والتملك : ويسميها « جون جينتز » الحضارة التى تعوزها الروح ويقول :

إن الانجليز إنما يعبدون بنك إنجلترا ستة أيام فى الأسبوع ويتوجهون فى اليوم السابع إلى الكنيسة .

إن الفلسفة الحقة التى إزدهرت فى جو من الإنحلال الدينى وراجت فى حياة أهل الغرب فعلا إنما كانت فلسفة المنفعة وعلى هذه الفلسفة أسس بناء المدنية والحضارة فى الغرب(٢) .

وأخيراً لنأخذ شهادة « ول ديورانت » الكاتب الأمريكى المتفلسف وهو رجل لا يمكن أن يقال إنه من أعداء هذه الحضارة ، فهو شديد الإعجاب بالتقدم الذى تمثله هذه الحضارة فى مجموعها وهو يبدو معارضاً للدين فى جملته كما أنه

---

(١) ص ٣٢٢ الإنسان ذلك المجهول .

(٢) انظر ص ١٣٦ - ١٣٧ سقوط العلمانية ـ أنور الجندى .

ظاهر العداء للاسلام بصفة خاصة(١) ومع هذا فهو يؤدى هذه الشهادة عن حضارة العلمانية فى كتابه «مباهج الفلسفة» .

إنه يقول :

وثقافتنا اليوم سطحية ومعرفتنا خطره ، لاننا أغنياء فى الآلات فقراء فى الاغراض ، وقد ذهب اتزان العقل الذى نشأ ذات يوم من حرارة الإيمان الدينى ، وانتزع العلم منا الاسس المتعالية لاخلاقياتنا ، ويبدو العالم كله مستغرقا فى فردية مضطربة تعكس تجزؤ خلقنا المضطرب .

إننا نواجه مرة أخرى تلك المشكلة التى أقلقت بال سقراط . نعنى كيف نهتدى إلى أخلاق طبيعية تحل محل الزواجر العلوية التى بطل أثرها فى سلوك الناس .

إننا نبدد تراثنا الاجتماعى بهذا الفساد الماجن من جهة ، وبهذا الجنون الثورى من جهة أخرى ، حين نفقد الفلسفة التى بدونها نفقد هذه النظرة الكلية التى توحد الاغراض وترتب سلم الرغبات .

إننا نهجر فى لحظة مثاليتنا السليمة ونلقى بأنفسنا فى هذا الانتحار الجماعى للحرب ، وعندنا مائة ألف سياسى وليس عندنا رجل حكيم واحد .

إننا نطوف حول الارض بسرعة لم يسبق لها مثيل ، ولكننا لا نعرف إلى

---

(١) نشرت له مؤسسة فرنكلين ترجمة جزء من كتابه مباهج الفلسفة ، ونشرت له جامعة الدول العربية ترجمة أجزاء من كتابه قصة الحضاره ، ويستطيع قارىء اللغة العربية أن يلاحظ موقفه هذا من الإعجاب بالحضارة وعدائه الظاهر للاسلام .

أين نذهب ، ولم نفكر فى ذلك ، أو هل نجد هناك السعادة الشافية لأنفسنا المضطربة .

إننا نهلك أنفسنا بمعرفتنا التى أسكرتنا بخمر القوة ، ولن ننجو منها بغير الحكمة(١) .

ويكتب « كونستانتان جورجيسينو » عن أزمة الحضارة الغربية وما يمكن أن تحدثه فى الانسان فيقول :

إنى أشعر أن حدثاً خطيراً قد وقع حولنا ، إنى أجهل أين إنفجر ومتى بدأ وكم سيدوم ؟ لكننى أشعر بوجوده .

لقد أخذنا فى الدوامة ، ولسوف تمزق هذه الدوامة جلودنا ، وتحطم عظامنا الواحد تلو الآخر .

إنى أشعر بهذا الحدث الهائل شعوراً لا يضاهيه إلا إحساس الجرذان المسبق

---

(١) ص ٦ - ٧ ج ١ مناهج الفلسفة - نشر مؤسسة فرنكلين .
ويلاحظ إعترافه بأن حرارة الدين قد أوحدث إتزان العقل وأن اضطراب أوروبا كله نشأ من تنحية الزواجر العلوية ، ويلاحظ أنه يهاجم الدين ويريد أن يستبدله بالفلسفة أو بالحكمة ، والارض التى لم تخل من الفلسفة فى يوم من الأيام ولكنها لم تقم أبداً مقام الدين فى قيادة المجتمع إلى التوازن وإلى التسامى الخلق - كما يلاحظ تشبيهه المغرض للدين - الذى شردوا منه - بالوثنية التى كانت قبل سقراط والتى إنهارت فأنشأت لعصر سقراط تلك المشكلة التى يتحدث عنها فالتسوية بين الديانات السماوية والوثنية الاغريقية لا تعبر إلا عن الهوى .
انظر فى هذا ص ١٣٤ سيد قطب - الاسلام ومشكلات الحضارة .

الذى يدعوهم إلى هجر مركب على وشك الغرق ، لن يكون لنا أى مأوى فى أيه مكان من العالم ، ويقول :

إن الامم الغربية فقدت كل شعور بالقيم الفردية ، وبالتالى بالكيان الفردى ومن هنا نشأ خطر الجماعية سواء كان على الطريقة الروسية أو على الطريقة الأمريكية وبسبب ذلك نستطيع أن نؤكد أن هذا المجتمع سينهار .

إن مجتمع الحضارة الفنية أصبح مناقضا مع حياة الفرد لأنه يخنق الإنسان .. إننا نموت جميعاً مختنقين فى الجو الخانق الذى يخلقه هذا المجتمع حيث لا يمكن لغير الرقيق الآلى والآلات والمواطنين أن تتحرك فيه[١] .

ويقول :

إن كل ساعة تمر على تاريخ الارض تقترب بالبشرية من مصيرها الفاجع لأن قيادتها إنتقلت منذ زمن بعيد إلى الإنسان الغربى سواء الذى يقطن فى أوربا الغربية وأمريكا أو الذى يقطن فى روسيا واليابان .

ولم تشهد الارض إحتكاراً أشد للقياده البشرية والحضارية من هذا الذى تشهده الآن .

إن نداءات شتى للتحذير قد أطلقت، منذ أن بدأ ينكشف ـ لذوى البصيرة ـ المصير المحتوم لحضارة تقودها قيم ومفاهيم لا تنسجم أساساً وكيان الانسان ، وأنها ـ بهذا ـ تسلط عليها ضغوطا ساحقة تضعف الاجيال بعد الأجيال ، ولا تتيح لها الاستعداد الكافى للقيام بأعباء الحضارة وتولى مسئوليتها الثقيلة .

---

(١) ص ٤٥٢ من رواية « الساعة الخامسة والعشرون » للكاتب الرومانى كونستانتان جورجيو ترجمة فايز نقش ـ طبعة ثالثة سنة ١٩٦٦ ـ دار اليقظة العربية ـ دمشق .

نداءات أطلقها كثيرون : أطباء وعلماء نفس واجتماع وفلاسفة ومؤرخون ورجال دين ولاهوت . تداعوا من كل حدب وصوب ليؤكدوا بأن على الحضارة المعاصرة أن تغير طريقها وأن تنعطف بمكتسباتها الهائلة إلى طريق جديد يحفظ لها تراثها الذى هو حصيلة كدح شاق طويل للبشرية جميعا(١) .

هذا بعض ما قاله علماء أوربا وفلاسفتها فى هذه الحضارة التى قامت على أكتاف العلمانية أو بعد فصل الدين عن الدولة ، وهذه أحكامهم أثبتناها دون تدخل منا أو محاولة شرح أفكارها أو التعليق عليها .

وبعد هذا فقد جاء دورنا لتبرز بعض الحقائق التى تضمنتها أقوالهم ونبين بعض الاحكام التى حكم بها علماء وفلاسفة أوربا على حضارة العلمانية ، كى نقف منهم على مدى السعاده التى نالوها أو مدى الشقاء والتعاسة التى يعيشون فيها .

ولا شك أن هذه الحقائق لا يستطيع منصف أو عاقل أن ينكرها أو ينقص من قيمتها ، ومن هذه الحقائق ما يأتى :

أولا : أن الانسان الاوربى رغم هذا التقدم المادى الهائل فإنه يشعر دوما بالتعاسة والانحطاط الخلقى وهذا ما قد عبر عنه الدكتور الكسيس كاريل بقوله :

إننا قوم تعساء لأننا ننحط أخلاقياً وعقلياً ، إن الجماعات والأمم التى بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هى على وجه الدقة الجماعات والامم الآخذة فى الضعف والتى ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها .

ثانياً : فقد الانسان الغربى – مع المدنية العلمانية كل استقرار روحى وأمن

(١) ص ٥١١ من المصدر السابق .

نفسى وهدوء قلبي وفقد الطمأنينة التي بدونها تصبح الحياة لا قيمة لها ، ولا طعم للعيش فيها ، وحل الشك فى قلبه محل اليقين وهذا ما عبر عنه « لاسكى » عندما قال :

ويبدو أن جيلنا فقد قيمته ، لقد حل الشك السافر محل اليقين وحل اليأس محل الامل .

إن رغباتنا تتسم كلها بطابع السرعة المحمومة وبطابع التهور والافتقار إلى الطمأنينة ، لقد انتصرت روح الانكار على روح اليقين إننا عدمنا - فى كل مكان - تلك السكينة ، أو الثقة بالنفس التى تجعل الافراد يختارون حلا من الحلول فيجعلوه موضع عبادة ويقول وفى مقدور هذا العلم أن يتيح الرفاهية المادية ولكن يبدو أنه عاجز عن اكتشاف مبادىء الرضا الروحى .

ثالثا : أصبح الانسان الاوربى - فى حضارة العلمانية - لا يجد غاية محددة يتجه إليها، ولاهدفاً نبيلا يعمل من أجله، بل لا يعرف سر وجوده ولذا فقد أصبح عبدا للآلة مع أنه هو الذى صنعها - وأخذ يشعر بالقلق والحيرة المتزايدة ويحس بالعجز فى حياته الفردية وهذا ما عبر عنه « أريك فروم » عندما قال بعد أن تحدث عن العلم والرقى المادى الذى وصل الانسان إليه .

غير أن الانسان الحديث برغم هذا - يشعر بالقلق وبالحيرة المتزايدة ، إنه يعمل ويجاهد ولكنه يدرك إدراكا غامضا عبث ما يبذل من نشاط .

وبينما تنمو سيطرته على المادة نجد أنه يحس العجز فى حياته الفردية وفى المجتمع وبينما نراه يبتكر وسائل يسيطر بها على الطبيعة ، نجده واقعا فى حبائل تلك الوسائل . . . وحينما أمسى الانسان سيدا على الطبيعة بات عبدا للآلة التى صنعها بيده وبرغم كل ما عرف عن المادة فهو على جهل فيما يتعلق بالمشكلات الهامة الاساسية الخاصة بالوجود البشرى .

رابعا : أصبح الانسان ـ بفضل علمانية أوربا ـ ماديا بحتا ، وفى سبيل ماديته والاقبال عليها والانغماس فيها ، تنكر لكل القيم والمثل والاخلاق والسمو العقلى والروحى ، وأصبح لا يجد حرجا أن يفتك بكل شىء يقف فى طريق هدفه فالغاية ـ عنده ـ تبرر الوسيلة ، وهذا ما عبر عنه الدكتور « الكسيس كاريل » عندما قال :

- إن المادية البربرية التى تتسم بها حضارتنا لا تقاوم السمو العقلى فحسب بل إنها تسحق أيضا الشخص العاطفى واللطيف والضعيف والوحيد وأولئك الذين يحبون الجمال ويبحثون عن أشياء أخرى غير المال . . ولقد أصبح الفرد ضعيفا متخصصا فاجرا غبيا غير قادر على التحكم فى نفسه ومؤسساته .

ويقول الفيلسوف « ول ديورانت » :

إننا أغنياء فى الآلات فقراء فى الاغراض ، وقد ذهب إتزان العقل الذى نشأ ذات يوم من حرارة الايمان الدينى ، وانتزع العلم منا الاسس المتعالية لاخلاقياتنا ، ويبدو العالم كله مستغرقا فى فردية مضطربة تعكس تجزؤ خلقنا المضطرب .

خامسا : من خلال هذه المقتطفات التى قدمناها لهؤلاء الفلاسفة والعلماء ومن واقع شهاداتهم على حضارة العلمانية نقرر بكل تأكيد أن هذه الحضارة ، حضارة لا تلائم الانسان ، لانها قامت دون معرفة بطبيعته وسارت فى طريقها دون اعتبار لخصائصه ، ودون اعتبار كذلك لما تنزله به من ويلات : . . . وفى الطريق أهدرت خصائصه كجنس وأهدرت خصائصه كفرد فى سبيل توفير إنتاج مادى ضخم تعود أرباحه إلى عدد محدود من الجشعين ، وفى أحسن الحالات فى سبيل تيسيرات مادية ورفاهية مشكوك ـ على الاقل ـ فيما إذا كانت ذات فائدة حقيقية للإنسان ومقطوع ـ بدون شك ـ أنها لا تساوى ما أهدر فى سبيلها من « إنسانية

الإنسان ، وخصائصه كجنس ، ومن إهدار خصائصه الفردية الواضحة فيه وكل مقومات الحياة .

إنها حضارة لم تلحظ فى بنائها هذا الإنسان ـ الذى صنعها ومن أجله صنعت ـ لم تلحظ ناحيته الروحية وإنما وقفت عندنا حيته المادية فقط ، لقد اهتمت بجانب الإنسان المادى وأهملت جانب الإنسان الروحى فهى ـ والأمر كذلك ـ لا تلائمه بل تسحق خصائصه الأساسية التى تجعل منه هذا الكائن الفذ الفريد فى الكون فالإنسان بدون روحه لا يملك أن يؤدى دوره فى الحياة ولو وجد اهتماما بجانبه المادى وحده .

سادساً : إن الاضطراب النفسى والتعاسة القاتلة التى تعيش فيها أوربا اليوم جاءت كنتيجة حتمية لاسقاطها العقيدة الدينية من حساباتها ومن هنا كان انحرافاتها فى التصور فى والسلوك .

ذلكم لأن العقيدة الصحيحة هى التى تحدد للانسان مكانه الصحيح فى الكون وفى الحياة وتسدد خطاه فى الزمان والمكان حيث تعين له وجهته الصائبة وتحدد له غايته الشريفة وترسم له طريقه المستقيم ، فيستقيم فى حياته وسلوكه ومشاعره وأعماله ومبادئه وواقعه ويصبح كله ـ كما ينبغى أن يكون ـ وحدة متماسكة متجهة الاتجاه الصحيح .

وحين تنحرف هذه العقيدة ـ أو تسقط من الحساب ـ فلابد أن يشمل الاضطراب كيان الإنسان كله ، كما تضطرب الابرة المغناطيسية حين يحال بينها وبين اتجاهها المرسوم . فيتفرق الكيان الموحد وتضطرب خطواته فى الزمان والمكان ، وتتوزع مشاعره وأعماله ووجدانه وسلوكه ومبادؤه وواقعه ، فلا يعود تلك الوحدة التى ينبغى أن يكونها ، ولا يشمل كيانه الأمن والسكون اللذان يستمتع بهما فى ظلال العقيدة الصحيحة والمنهج الصحيح .

ولم يحدث قط فى التاريخ إنحراف فى العقيدة ـ أو تنكر لها ـ دون أن يتبعها انحراف فى علاقات الانسان وارتباطاته وتصوراته وأفكاره .

فالعقيدة هى المنظم لذلك كله سواء تنبه الانسان إلى ذلك أم لم ينتبه ، وأراد أم لم يرد ! .

فإذا صحت العقيدة إستقام الكيان كله واستقامت خطواته وإذا اضطربت العقيدة سرى إلى الكيان كله ذلك الاضطراب (١) .

سابعاً وبإسقاط أوربا العقيدة من حساباتها أسقطت تبعاً لها الأخلاق الفاضلة وقضت على الضمائر الحية ، وانغمست ـ إلى رأسها ـ فى مستنقع المادة المفن ، وتنكرت لكل الفضائل وأحلت مكانها النزعة العلمية والنزعة الاستعمارية البغيضة . ولنستمع إلى حديث الأستاذ «مالك بن نبى» فى هذا المجال حيث يقول :

ولقد تحالف هذان العاملان اللذان نطلق عليهما : النزعة العلمية والنزعة الاستعمارية ليصبحا قدراً مكتوباً على أوربا .

ولقد كان من شأن هذين التأثيرين أن انزلقت أوربا إلى حمأة المادية ، فما تماسكت أن حثت خطوطها نحوها يحدوها ما أحرزه العلم من إزدهار هائل مبدع وكانت الفجوة بين هذا العلم الذى قلب الأوضاع وبين الضمير التقليدى الناكص تزداد اتساعاً وعمقاً كلما جد جديد ، أو حدث إكتشاف فى ميدان العلوم ، وغرق ذلك الضمير الذى طأطأ رأسه أمام آلهة العلم فغمره فيضان على حقيق فى بداية القرن العشرين استودع فى النفس الأوربية ، ولقد افتتنت الذات الأوربية بما حررت من قوى فاستسلمت لسحر عبقريتها ولكن هذه الذات قد قامت فى الواقع بدور « تلميذ الساحر » .

---

(١) جاهلية القرن العشرين ص ٤٧ ـ ٤٨ ـ محمد قطب طبعة أولى سنة ١٩٦٤م

فقد أبدعت آلات لم تستطع السيطرة عليها ، ثم استنامت لتلك الآلات تقودها بعقل آلى ، وتزدردها فى أحشاء من حديد ، فصارت الحياة أرقاما ، وأضحت السعادة مقيسة بعدد ما لديها من وحدات حرارية وهرمونات ، وصار العصر عصر « كم » يخضع الضمير فيه للنزعة الكمية ، كما صار عصر النسبية الأخلاقية حيث استهل قرنه بالمبدأ القائل : « كل شىء فى الحياة نسبى » .

فلم يعد أحد يدرك معنى الفضيلة المطلقة ، بل إن الكلمة نفسها قد أضحت من المعميات ، أضحت كلمة ميتة لا معنى لها ، لأن القرن العشرين ، هو قرن العقل الوضعى الذى يشبه عقل الآلة لم يعد يفهم شيئا وراء التصورات النسبية للمادة .

لقد مات معنى الفضيلة المطلقة من الوجه الذى مات منه مفهوم العدالة فى قول أحد الأوربيين : « إن تسوية جائرة خير من قضية عادلة » وصارت الحياة الاقتصادية نفسها إلى مصيرها يوم وجد بعض الناس فى أنفسهم قحة وجرأة ليؤكدوا أن التجارة هى السرقة الحلال » .

وهكذا نجد أن أوربا النازعة إلى الكم وإلى النسبية قد قتلت عدداً كبيراً من المفاهيم الأخلاقية حين جردتها من أرديتها النبيلة وأحالتها ضروبا من العملة ، وكلمات جديدة فى اللغة طريدة من الاستعمار ومن الضمير ، وكأنما صارت القواميس (أحيانا) مقابر الكلمات لا توحى بشىء لأن مفهومها لا ينبض بالحياة .

لقد تعاظم خطر تلك النزعة الكمية فى أوربا طبقا « للعامل المضاعف » المتمثل فى القوة الفنية والذى تملكه صناعة غزت العالم كأنها أخطبوط يضاعف بصورة هائلة شهوة الانسان إلى المادة فهى تملى على الطفل اتجاهه فى الحياة بحيث لا يختار طريقه فيها إلا وقد وضع نصب عينيه ما يأخذه من المجتمع لا ما يعطى .

إنه يبحث عن حظه لا عن رسالته [١] :

لقد أصبح الرقم سلطانا فى المجتمع الفنى الآلى الذى قام بأوربا منذ عام ١٩٠٠ م وصار الاحصاء لامعقب لحكمه فليس للفطرة الانسانية : أعنى الضمير الانسانى ذاته دخل فى الحياة الجديدة شأنه فى ذلك شأن مالا يدخل فى عداد الأرقام ولا يقاس بالكميات ـ وبذلك أصبحت حياة الانسان مجرد وظيفة تكمل الارقام ، فالماكينات هى التى تحرر وتحسب بل وتسخر الانسان للانخراط فى حركة أجهزتها .

إن قانون « لاسال » الذى أطلق عليه « القانون الفولاذى » قد أصبح المتحكم فى مصير الانسان والخالق لحمة وأعصابه حتى جعل منها آلة عاقلة . بل إن الحاجة التى تعد من ألصق الامور الانسانية ، حتى هذه تجردت الآن من إنسانيتها فتحولت ضربا من ضروب التجارة ، فما يتصورها أحد هنالك أو يقرها إلا حيث تكون مربحة .

أما الحاجات الانسانية العامة ، وبخاصة حاجات الارملة واليتيم والشيوخ والمرض فهى ليست ، مربحة ، لان الماكينات لا تعرف الحساب الاخلاقى أو التقديرات الميتافيزيقية [٢] .

ويقول أبو الحسن الندوى :

أصبح العقل الاوربى محاميا عن المادية لا يحكم على الاخلاق بالحسن والصحة إلا بمقدار جلبها للمنافع المادية ، وبحسب ما يكتسب المجتمع بواسطتها من اللذه

---

(١) وجهة العالم الإسلامى – ص ١٤٢ ، ١٤٣ – مالك بن نبى – ترجمة د/ عبد الصبور شاهين – دار الفكر بدون تاريخ .

(٢) نفس المصدر السابق ص ١٤٥ .

والهناء ، والأفراد من الاغتباط والرخاء ، فأصبح الربح المادى هو ميزان للأخلاق والفارق بين الشر والخير ، وأصبحت الأخلاق التى لا وزن لها فى ميزان المادة ليس لها قيمة ، إلا القيمة الدينية والخلقية فى المصطلح القديم . ينتقص كل يوم سلطانها على القلوب والعقول ، وتعدم أنصاراً وتصبح من شعائر القديم وذكريات العهد الماضى كحنان الأبوين وحبهما للأولاد ، ووفاء الأزواج وحفظهن الغيب ، وتحل محل هذه الأخلاق المقدرة الصناعية والاختراع والانتاج والوطنية والجنسية ولا تزال ترتفع قيمتها ويرجح وزنها (١) .

ثامنا : نخلص من هذا كله إلى الحكم الذى نريد أن نصدره أو أن نقرره – وأغلب الظن فلن يخالفنا فيه أحد – وهو أن أوربا لم تشعر بالسعادة فى ظلال العلمانية يوماً وأنها بإقصائها الدين عن فكرها وسلوكها وحياتها – قد وقعت فى خطأ جسيم ، وقد زاد حجم هذا الخطأ عندما جعلت العلم فى مواجهة الدين ، وقررت أن العلم والدين ضدان وأنهما عدوان لا يلتقيان ولا يجتمعان ، وأن من استقبل أحدهما إستدبر الآخر ، ومن هنا فإن أوربا قد استدبرت الدين ، واستقبلت العلم .

بل واتخذته معبودها الجديد ، وهللت لمنجزاته وفرحت بمخترعاته وأعجبت بحضارته ، ولكنها مع هذا كله – لم تقدم شيئاً مما يسعد النفس الإنسانية أو يدخل عليها الطمأنينة والسكينة ورضا الروح .

وذلك لأن كل ما أعطت حضارتها كان فى مجال الماديات . . . أعطت الانسان الترف والرفاهية ومعها الرخاوة والتحلل وبذلك ركد جسمه وحسه ولم يعد قادراً على مقاومة الأخطار والتحديات . . . ولم تقدم الحضارة للانسان شيئا من الايمان وظنت خطأ – أن العلم كاف فى هذا المجال – ونسيت أو تناست أن العلم وحده لا يكفى وأن استعمال العلم فقط يدمر الكيان البشرى .

---

(١) ماذا خسر بانحطاط المسلمين ص ٢٧٥ – ٢٧٦ طبعة عاشرة سنة ١٩٧٧ دار الانصار أبو الحسن الندوى .

إن هذه الحضارة المادية وهذا العلم الذى قصر نفسه على دراسة ظواهر الأشياء سوف لا يعطى النفس البشرية الحائرة المعذبة ـ الاجابة المطلوبة ـ ان يعطيها أشواقها ولن يعطيها ترياقها وستظل غارقة فى الحيرة والتمزق حتى تهتدى إلى منهج الله القديم ، وتعرف أن الله القدير من وراء هذا العلم ، وأنه صانعه ، وهو ـ سبحانه ـ الذى هدى الانسان إلى معرفة أسراره وكشف قوانينه ، وأنه ـ جل جلاله ـ من وراء الكون كله لحظة لحظة (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده)[١] .

إن مفهوم العلم مازال قاصرا ، لا يستطيع أن يعطى إلا إجابة واحدة عن ظواهر الأشياء ، أما أسرارها وغاياتها وأبعادها وغاية الانسان من الحياة فتلك لا يقدمها إلا الدين والوحى .

ولذلك فإن أوربا كلها تعانى الاضطراب واليأس والفوضى الشاملة ، إنها كما يقول « سار فيبالى راداكرشنان » .

نحن نعيش فى عصر تفكك فى الأفكار وتردد فى العمل وقيمنا غامضة وتفكيرنا مضطرب وأهدافنا متغيرة ومستقبلنا غير واضح .

هناك معارف متناثرة هنا وهناك ولكن ليست هناك صورة واحدة مرئية وقد أشار الشاعر الانجليزى و ب ييتس إلى حالتنا هذه فى كلمات خالدة يجدر بنا أن نتدبرها جيداً حين قال :

كل شىء يتداعى والمركز يتلاشى
والفوضى الشاملة تزحف على الدنيا
وتيار الدماء يتدفق . . .
ومكانة الكرامة تنحط فى كل مكان
وأفضل الناس يعوزهم الايمان
وأسوؤهم يسير مع الأهواء [٢]

(١) آراء فلسفية فى أزمنة العصر . تأليف أدريين كوخ ـ ترجمة . محمود محمود
(٢) سورة فاطر آية ٤١ .

ولاشك أن كل هذه التعاسة والشقوة والاضطراب النفسى والقلق العام جاء نتيجة حتمية لتجربة أوربا مع العلمانية ولإبعادها الدين عن مجالات الحياة .

وتجربة الغرب كله الآن معروضه على الدنيا كلها بعد أن تبلورت فى أزمة الانسان الحديث وأزمة الحضارة ، وفى ذلك التمزق والاضطراب والفساد والتدمير النفسى والاجتماعى الذى يعانيه الغرب ، بالرغم من كل مصطلحات العلم .

ولذلك فإن هذه الحضارة لا تتفق مع فطرة الانسان السليمة إنها - كما يقول كاتب أمريكى - فى نزاع واضطراب مع الانسانية ، لأن المخترعات وآثارها — وهى من عمل العقل الواعى قد سبقت العقل الباطن لأوربا نفسها ، وأوجدت بيئة شديدة الجدة على الانسانية .

والانسان لا يستريح أو يهدأ إلا حين تتوازن نفسه الباطنة مع ما يحيط بها من الحياة الظاهرة وتتدرج تدرجا طبيعيا .

ولا شك أن هذا الرأى له قيمة فى تقدير هذه الحضارة لأنه يقوم على نظرية علمية [illegible] مذهبا قائما(1) .

[illegible] واضحا جليا أن الحضارة الغربية المادية أفلست فى قيادتها للبشرية [illegible] وانطلاق سريع نحو الانحلال وذلك فى النصف الأول من [illegible] . وأنه طرأ عليها من عوامل الخلل ومن دواعى الفساد وتزاحم الشرور و[illegible] الآثام ما ينبىء بكارثة عظمى لهذا العالم البشرى لو استمرت قيادته فى يد هذه الحضارة المتحللة من كل معنى من معانى الروح ، المقيمة ستارا كثيف بينها

---

(1) انظر كتاب نقد مستقبل الثقافة فى مصر . سيد قطب . طبعه أولى سنة ١٩٦٩ - ١٣٨٩ الدار السعودية للنشر والتوزيع .

وبين ما يدعو إليه الدين من مساواة وعدل ويقظة للضمير ، وإحياء للخلق النبيل والمثل العليا الرفيعة للحياة(١) .

وهذا يتفق مع ما قاله « جورجيو » فى روايته الشهيرة (الساعة الخامسة والعشرون) وهو يتحدث عن خطر قيادة الغرب الانسانية إذ يقول :

إن كل ساعة تمر على تاريخ الأرض تقترب بالبشرية من مصيرها الفاجع لأن قيادتها إنتقلت منذ زمن بعيد إلى الانسان الغربى سواء الذى يقطن فى أوربا الغربية وأمريكا أم الذى يقطن فى روسيا واليابان .

إن نداءات شتى للتحذير أطلقت ، منذ أن بدأ يتكشف ـ لذوى البصيرة ـ المصير المحتوم لحضارة تقودها قيم ومفاهيم لاتنسجم أساسا وكيان الانسان .

تاسعاً : إن العلمانية هى النتاج الاخير للمحاولات الخطيرة الدائبة منذ عصر التنوير فى أوروبا من أجل هدف خطير تستهدفه الايديولوجية التلمودية وتعمل دائبة له عن طريق الفلسفة المادية ونظرياتها المتعددة التى انتقلت خلال مراحل عديدة واستهدفت معارضة وجود الله والأديان والرسل والكتب السماوية من ناحية ، ومعارضة الشرائع والأخلاق من ناحية أخرى وإقامة دين جديد يحل محل الدين الحق المنزل بالوحى من عند الله ، هو دين البشرية المتحرر بالإلحاد من الالوهية ، والمستعبد بالعلمانية الربا والجنس والوثنية والإباحة والذهب .

ولقد نجحت التجربة ظاهريا فى الغرب مما أغرى دعاة العلمانية من أعداء الاسلام إلى نقلها إلى حياة المسلمين غير ناظرين إلى مدى الفوارق البعيدة فى العقائد والأخلاق والتقاليد والعادات والمثل بين الغرب والشرق .

---

(١) صحح ـ ٥ مستقبل الاسلام ـ محمد عبد القادر العماوى ـ دار الفكر الحديث للطبع والنشر ـ بدون تاريخ .

ولو أن الداعين إلى العلمانية كانوا علميين حقا يصدرون عن فهم للتجربة بما تحتويه من مقارنة ومقايسة لكان عليهم أن يقارنوا بين مفهوم الدين من حيث يطلق على عموميته وبين مفهوم الاسلام كدين له طابعه المتميز من حيث هو دين ونظام مجتمع .

لقد كان الخطأ الكبير الذى وقعت فيه العلمانية - وهى تنحى الدين وتشهر به - أنها اعتمدت على تفسيرات زائفة ولم تعتمد على أصول أصيلة لدين الله الحق .

وأنها نظرت من خلال مرحلة محدودة لها ظروفها وطبيعتها وعجزت أن تنظر نظرة كليه فاحصة لتحيط بالقضية من مختلف أبعادها .

وأن العلمانية حين تصف الدين بأنه مجموعة من الغيبيات والأساطير والخرافات والأوهام إنما كانت تصف واقعاً أمامها غير أنه لم يكن فى الحقيقه كل الاديان كذلك .

وأنها حين تصف الدين بأنه مصدر الاستبداد أو خداع الضعفاء وتضليلهم أو تخديرهم بالجنة فى الآخره، فهذا كله قد جاء فى حدود النموذج الذى كان موضع التحدى ورد الفعل .

وإذا ذهب بعض رجال علم النفس أو الاجتماع أو الاقتصاد أو الأخلاق إلى إقرار نظريات تتصل بالكبت أو مقاومة الغرائز أو معارضة طبيعة الانسان فى معطياته ورغائبه ، فإن ذلك إنما يمثل واقعا عرفه الغرب باسم الدين ولكنه لم يكن هو الدين فى مفهومه الحق المنزل من عند الله ، وإنما كان ذلك كله تفسيراً بشرياً .

ومن الحق أن تردد العلمانية كلمات الاساطير والاوهام والخرافات، لأن ذلك إتصل بالفكر المعروض باسم الدين . والذى يعطى حق فهم الاسرار لطائفة

من الناس دون الناس جميعا ، غير أن العلمانية كانت قاصرة وعاجزة عن أن تفهم أن تحدياتهم قاصرة على بيئة معينة وأن ما تواجهه ليس هو المنهج الأصيل الذى قدمته رسالات الأنبياء .

بل إن العلمانية فرضت من أهواء معينة تريدأن تجتاح الدين بالحق أو بالباطل وقد استفادت من بعض وقائع التاريخ من جـــراء تطبيق تفسيرات فاسدة ، ولو أنها كانت علمانيه بالمعنى العلمى الحقيقى لوقفت عند حدود الحق ولأنصفت كلمة الدين ، ولاسيما الدين الحق الذى تكفل بارىء الكون وخالق السموات العلا بحفظه على مر العصور والدهور ، ولم تصدر حكما عاما جائرا على الأديان جميعا ، بل ما كانت تتخذ من الدين عدواً لها ، ومن العلم نصيراً لإلحادها حتى وصلت إلى ما هى عليه الآن .

وإذا كانت العلمانية قد أسقطت من حساباتها الجانب العقائدى فإنها — لذلك — لم تستطع المحافظة على توازن الانسان أو التناسق بين جانب العقيدة والروح وجانب الحس والمادة ومن هنا كانت هذه الانحرافات الرهيبة .

ذلكم أن الانسان لا يقوم وحده ، لأنه ليس خالق نفسه ، فهو مشدود — دوما — إلى خالقه جل جلاله وإلى النواميس الكبرى التى فطر الله الكون والخلائق والأشياء عليها ، ولأنه لا يستطيع أن يعطى إلا بالتفاعل مع الكون المادى ، فهو مشدود إلى الطبيعة ، وله صلاته الاجتماعية فهو مشدود إلى البشرية وأخيراً فهو أيضا مشدود إلى طبيعته البشرية الذاتية ، وتكوينه الحيوى الخارجى .

وهكذا فإن هناك أربع قيم كبرى هى :

- العقيدة .

- الإنسانية .

- الطبيعة الخارجية .

- الطبيعة الداخلية .

ولا نستطيع - من ثمة - تصور إنسان ألغى صلاته نهائياً بهذه القيم جميعا ، لأنه سوف يتنازل - حينذاك - عن وجوده كإنسان قدر له أن يلعب دوره فى تاريخ الكون .

ولابد أن نحافظ على الانسان ، وذلك بالمحافظة على هذه القيم الكبرى كى نحقق التوازن المنشود والمطلوب بسعادة الانسان ، ولا يتأتى هذا التوازن إلا بالتخطيط العقائدى الذى يشمل كل جوانب الحياة والحركة .

ولذلك فإن إسقاط الجانب العقائدى من حسابات العلمانية كان وراء اضطراب الانسان وانحرافاته .

ولقد لعب عامل الانحراف دوراً خطيراً فى التاريخ ، والتفسير التاريخى لابد وأن يعطى لهذا العامل دوره الفعال فى سقوط الدول والحضارات .

فالحضارة « الكلاسيكية » سقطت لانها خرجت عن القـيم الخلقية والإنسانية ، وغدا التزامها بها سلبيا .

وحضارة « عصر الاحياء » سقطت لانها خرجت عن العقيدة ، وغـدا التزامها بها سلبيا .

والحضارة « المسيحية » سقطت لانها خرجت على الطبيعة - ببعديها الخارجى والداخلى - وغدا التزامها بها سلبيا .

فعندما تتضخم دائرة العقيدة على حساب الطبيعة أو العكس ، وعندما تتضخم دائرة الطبيعة على حساب القيم الانسانية والخلقية ـ الأمر الذى تمارسه الحضارة الغربية المعاصرة ـ أو بالعكس .

وعندما تغدو العلاقة بين هذه الدوائر جميعا قائمة على الصدام أو الرفض والتناقض ، أى عندما يحدث الانحراف ويفقد عنصر للتوازن ، فإن الوجود الإنسانى ـ أنذاك ـ سوف يفقد تكامله ويكف ـ بالتالى ـ عن عطائه الحضارى .

من هنا كان التخطيط الذى يستهدف التوازن لا يستطيع تحقيق أهدافه إلا إذا نظر إلى العقيدة والطبيعة والعلاقات الإنسانية نظرة شاملة ، ترى فى هذه العناصر جميعا قيما متكاملة موحده ، ذات صلات إلتزامية عضوية . وإلا إذا استبعدت النظرة المجزأة الخاطئة التى تفرض التصادم والتناقض بين هذه القيم .

ومن هنا أيضا اعتبر التخطيط العلمانى الذى يفصل بين العقيدة والطبيعة وبين الدين والقيم والمواصفات الإنسانية الجماعية وعلى رأسها الدولة ـ أو الفردية ، وعلى رأسها العقل، عاملا من أهم عوامل عدم تكامل الوجود الإنسانى ، وفقدان العطاء الحضارى لمرتكزاته الطبيعية وانهيار الحضارة بالتالى[1] .

وما مرحلة الحضارة الحالية إلا غمرة المدنية المضللة ببهرجها الذى يستر فقرها الروحى ، فهى سائرة بخطى واسعة إلى الفناء المحتوم الذى أصاب الحضارات السابقة ، تلك سنة الوجود ولا راد لأمر الله[2] .

---

(١) ص ٧٦ ومابعدها بتصرف من تهافت العلمانية للدكتور عماد الدين خليل .

(٢) إزوالد اشبنجلر : تدهور الحضارة الغربيه ـ نقلا عن طه عبد الباقى سرور ـ دولة القرآن ص ٣٦ .

يقول « جوروجيو » :

إن الأمم الغربية فقدت كل شعور بالقيم الفردية وبالتالى بالكيان الفردى ومن هنا نشأ خطر الجمعية سواء كان على الطريقة الروسية أو على الطريقة الأمريكية وبسبب ذلك نستطيع أن نتأكد من أن هذا المجتمع سينهار . إن مجتمع الحضارة الفنية أصبح متناقضاً مع حياة الفرد لأنه يخنق الانسان . إننا نموت جميعا مختنقين فى الجو الخانق الذى يخلقه هذا المجتمع [١] .

ويقول صاحب « كتاب تجديد الفكر العربى[٢] » مصوراً ما أصاب الإنسان الغربى نتيجة لعلمانيته :

لقد فشل الغرب نفسه - وهو صاحب العلم الحديث - فكان له العلم ولكنه فقد الانسان إننا نرى بما يحسه الناس هناك فى دخائل صدورهم من ملل وسأم وضيق وحيرة وضياع .

إن الانسان يساير عصره العلمى فى مقتضياته ، لكنه لا يجد الفراغ ليخلوا إلى نفسه ويصغى إليها كأنما كل فرد هناك هو « فاوست » أغراه الشيطان بأن يبيع نفسه من أجل علم يحصله أو مال يكسبه أو قوة يستبد بها ويطغى .

ولسنا نقول ذلك وفى أذهاننا أقل ذرة من رغبة فى التهوين من شأن العلم والمال والقوة - بل نقوله لنؤكد ضرورة أن يضاف إليها شيء آخر هو القيم الخلقية والروحية التى تجعل من الانسان إنسانا بالعمق بعد أن جعل منه العلم والمال والقوة إنسانا بالطول والعرض .

---

(١) من روايته « الساعة الخامسة والعشرون » ص ٤٥٢ .
(٢) الدكتور ذكى نجيب محمود ص ٢٧١ من كتابه تجديد الفكر العربى طبعة خامسة ١٩٧٨ م دار الشروق .

إن العلم هناك قد أدى إلى صناعة ، والصناعة تطورت حتى أسلمت أمرها إلى تقنيات دقيقه معقده ، وهذه بدورها قد جزأت الإنسان إلى شرائح رقيقة من التخصص بحيث كادت حياة الفرد الواحد تنحصر فى عملية واحدة يؤديها طيلة نهاره حتى ينهكه التعب ويأخذ منه الملل فيغفو عن الطبيعة الحية من حوله ، بل قد يسهو عن شئون أسرته نفسها وبذلك تمزقت وحدته واشتدت غربته فأصبح فى دنياه شبحا عابراً كأنما جاء إليها ضيفا ثقيلا ، لا يرغب فى بكائه إلا ريثما يكدح فى هذا الكدح الممل الرتيب .

إننا جميعا لنسمع ما أصاب الشباب هناك من ذهول يشبه الهذيان لما يرونه ممتداً أمامهم من حياة جدباء ، مهما أثرت جيوبهم بالمال وامتلأت بطونهم بالطعام والشراب فتعمدوا الانسحاب بالعقاقير المخدرة آنا والانغماس فى غيبوبة « اليوجا » آنا آخر ، أو هم قد يتعمدون الشذوذ ، باصطناع العنف حينا وبغرابة السلوك حينا آخر . وذلك يأسا منهم أن يوائموا بين أنفسهم وبين حياة ضيق العلم والصناعة خناقها . فلئن زادهم العلم والصناعة ثراء وقوة فقد أفقدهم العيش فى سلام ومصالحة مع صوت الضمير .

ويقول صاحب كتاب « معالم فى الطريق (١) » .

إن قيادة الرجل الغربى للبشرية قد أوشكت على الزوال ، لا ، لأن الحضارة الغربية قد أفلست ماديا أو ضعفت إقتصاديا أو عسكريا ، ولكن لأن النظام الغربى قد انتهى دوره لأنه لم يعد يملك رصيدا من القيم يسمح له بالقيادة .

---

(١) الأستاذ سيد قطب ص ٥ .

ولقد أطلق الفيلسوف المعاصر « برتراند راسل » نبوءة صادقة سنة ١٩٥٠ حين قال :

(لقد انتهى العصر الذى يسود فيه الرجل الأبيض وبقاء تلك السيادة إلى الابد ليس قانونا من قوانين الطبيعة ، وأعتقد أن الرجل الابيض لن يلقى أياما رضية كتلك التى لقيها خلال أربعة قرون » .

وحين أطلق هذا الفيلسوف نبوءته الصادقة هذه لم يكن يشير إلى ملابسات سياسية معينة تنهى دور الرجل الابيض فى تاريخ الحضارة البشرية فالسياسة فى الحقيقة إن هى إلا المظهر الخارجى لحقيقة الأوضاع الداخلية للامم .. الأوضاع الفكرية والروحية والنفسية والاجتماعية والعلمية والمادية سواء ! وإنما كان الرجل — الفيلسوف — يدلى — على طريقته الفلسفية — بنصيبه فى شهادة القرن العشرين وتقييمه لحضارة قد وصلت إلى غايتها — على خطوطها المنحرفة — فأخذت فى الانهيار [١] .

وحضارة الغرب إذن ليست راضية عن نفسها . وليس أحد من علمائها أو أو أعلامها أو فلاسفتها راضيا عنها .

وحضارة الغرب ليست كما يتصورها أهل الشرق المتطلع للنهوض بناء كاملا ليس به ثغرات أو جنة خالدة على الأرض لا يمس المرء فيها نصب أو لغوب !. والإنسان فى هذه الحضارة لم يعد ذلك « الإله » الذى توهمه عصر النهضة : يقوم وحده ويستغنى عن غيره ويسخر الطبيعة بعقله ويفجر ينابيع الحكمة من نفسه وفكره ..

لقد انكشف القناع فإذا به إنسان الأمراض والعقد النفسية والاضطرابات العصبية والضعف البشرى بكل صوره الروحية والجسدية والفردية والجماعية ..

---

(١) التطور والثبات فى حياة البشر — محمد قطب ص ٢٩١ .

لابد أن نتعرف على الحضارة الغربية تعرفاً صحيحاً ، وأن نبين خيرها وشرها، صالحها وطالحها ، ثغراتها ومآزقها ، وأن نجتهد كي نتوق رد الفعل الذى وقع فيه القوم يوم شدتهم النهضة والكشوف والتجارب والآلات ..

ولدينا من دروع الوقاية وأسباب التوازن - دين يختلف تاريخه معنا عن تاريخ الدين مع الغرب .

ثم لدينا تجربة كاملة قدمها الغرب بين أيدينا، حيث أسمعنا أول الأمر تسبيحات التقديس لحضارة الإنسانية المادية الجديدة حيث لا مكان لإله أو لعالم آخر مغيب وما لبث أن أطلق بعد ذلك صرخات البلبلة والشكاية من الحضارة القائمة ثم فى آخر الأمر باح الغرب بأشواقه المكبوته وحفنا إلى لإيمان من جديد [١] .

وعلى الجيل الواعى فى شرقنا قبل أن يسلم نفسه تماما إلى معابد الحضارة الغربية وأن يأخذ خيرها وشرها . أن يراجع عنها تقارير « لا سكى » وفروم » والكسيس كارل ، وول ديورانت وغيرهم وغيرهم فإنها أقوم وأوثق لبيان الحقيقة فى هذا المجال وأن يقرأ ما كتبه الكاتب المجرى المسلم « ليوبولد فايس » محمد أسد عن مأساة الانسان الغربى كنتيجة صادقة عن حضارته الأوربية إذ يقول :

حقاً إن الانسان الغربى قد أسلم نفسه لعبادة الدجال ، لقد فقد منذ وقت طويل براءته ، وفقد كل تماسك داخلى مع الطبيعة .

لقد أصبحت الحياة فى نظره لغزاً . إنه مرتاب شكوك، ولذلك فهو منفصل عن أخيه منفرد بنفسه ، ولكى لا يهلك فى وحدته هذه فإن عليه أن يسيطر على الحياة بالوسائل الخارجية .

---

(١) الدين فى موقف الدفاع ص ٧٦ - ٧٧ - فتحى عثمان .

إنه يخترع كل يوم آلات جديدة ويعطى كلاحتها بعض روحه كيما تنافح في سبيل وجوده ، وهى إنما تفعل ذلك حقا ولكنها في الوقت نفسه تخلق له كل يوم حاجات جديدة وأخطاراً جديدة ومخاوف جديده وظمأ لا يروى إلى حلفاء جدد آخرين أكثر اصطناعية ، وتضيع روحه في ضوضاء الآلة الخالقة التي تزداد مع الأيام قوة وجرأة وغرابة ، وتفقد الآلة غرضها الأصلي - أن تصون وتغنى الحياة الإنسانية - وتتطور إلى إله قائم بذاته إلى صنم مفترس من فولاذ .

إن المدنية الغربية لم تستطع حتى الآن أن تقيم توازناً بين حاجات الإنسان الجسمانية والاجتماعية وبين أشواقه الروحية .

لقد تخلت عن آدابها الدينية السابقة ، دون أن تتمكن من أن تخرج من نفسها أى نظام أخلاقي آخر مهما كان نظرياً يخضع نفسه للعقل .

فالأمم الغربية قد وصلت الآن إلى درجة أصبحت معها الامكانات العلمية غير المحدودة تصاحب الفوضى العلمية ، وإذا كان الغربي يفتقر إلى كل توجيه ديني صادق ، فإنه لا يستطيع أن يفيد أدبيا من ضياء المعرفة التي تسكبه علومه - وهى ولا شك عظيمة - فعليه يمكن أن تنطبق كلمات القرآن الكريم (مثلهم كمثل الذى إستوقد ناراً فلما اضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون صم بكم عمى فهم لا يرجعون [1]) .

ويقول الشاعر الفيلسوف محمد إقبال في ديوانه (ماذا ينبغى أن تعمل شعوب الشرق ؟) :

---

(١) الطريق إلى مكة ص ٢٠٠ - ٢١١ - محمد أسد الطبعة الأولى ترجمة عفيف البعلبكي . والآيات من ١٧ - ١٨ من سورة البقرة .

لقد تضخم العلم وتقدمت الصناعة فى أوربا ولكنها بحر الظلمات ليس فيه عين الحياة ، إن أبنية مصارفها تفوق أبنية الكنائس فى جمال البناء وحسن المظهر والنظافة . إن تجارتها قمار يربح فيه واحد ويخسر ملايين .

إن هذا العلم والحكمة والسياسة والحكومة التى تتبجح به أوربا إلا مظاهر جوفاء ليست وراءها حقيقة .

إن قادتها يمتصون دماء الشعوب وهم يلقون درس المساواة الانسانية والعدالة الاجتماعية .

إن البطالة والعرى وشرب الخمر والفقر هى فتوح المدنية الافرنجية .

إن الأمة التى لا نصيب لها فى التوجيه السماوى والتنزيل الالهى غاية نبوغها تسخير الكهرباء والبخار .

إن المدنية التى تتحكم فيها الآلات وتسيطر فيها الصناعة تموت فيها القلوب ويقتل فيها الحنان والوفاء والمعانى الانسانية الكريمة [١] .

ويقول (هنرى ماى) فى كتابه « دفاع عن الغرب » :

الحضارة الحديثة شر مستطير لأنها تجعل السعادة المادية الغرض الوحيد من الحياة وهى تسخر الغربيين وتفسد الشرقيين وتجعلهم جميعا عبيداً للمال [٢] .

وبعد . . فهذه هى حضارة أوربا التى قامت على العلمانية أو على إبعاد الدين عن الحياة ، وهى التى جعلت العلم فى مواجهة الدين فجنت ثمار تمردها عن فطرة ربها

---

(١) نقلا عن الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية فى الأقطار الاسلامية ـ أبو الحسن الندوى طبعه ثالثة سنة ١٩٧٧ مطبعة التقدم ـ القاهرة

(٢) الاسلام والاشتركية ص ١٠١ ميرز أحمد حسين .

جل جلاله وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم كانوا يظلمون » . لقد جنت أوربا على نفسها عندما قطعت صلتها بخالق السموات جل جلاله وركنت إلى الأرض وعبدت المادة فعاشت فى مستنقعها الخبيث .

لقد جنت أوربا على نفسها عندما اتخذت من العلم وحده قاعدة انطلاق مع حرصها الشديد على إبعاد الدين عن دائرته ، بل لقد جعلت الدين عدوا للعلم . ومن ثم فقد هوت إلى حضيض الشقاوة والتعاسة والحيرة . وهى اليوم تتلفت حولها وتبحث عن من يقدم لها الدواء ويأخذ بيدها إلى طريق الشفاء ، ولن تجد أوربا من يقدم لها هذا البلسم الشافى ـ دون شك ـ غير المسلمين فهم الذين يملكون وحدهم دين الله الحق الهادى إلى الطريق القويم .

ويوم تفيق أوربا من سكرتها وتصحو من غفلتها وتمد يدها إلى أمة الاسلام تطلب الهداية والرشد يوم تجد دعاة الإسلام بريادة الازهر الشريف يسارعون فيضعون أمامها نور الله وهداية الله ونداء الله [قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون [1]] .

إن أوربا لن تستمر فى غيها وضلالها بعيدة عن الدين الحق فالدين فطرة . إنه على حد تعبير « أرنولد توينبى » : جزء من الطبيعة البشرية [2] . وأنه لم توجد جماعة قط ـ كما يقول هنرى برجسون ـ بغير ديانة [3] .

---

(١) آل عمران : ٦٤ .

(٢) الايدلوجيات والفلسفات المعاصرة فى ضوء الاسلام : انظر ص ٢٧٧ - أنور الجندى .

(٣) الدين : ص ٨٢ - ٨٣ د / دراز : ط ثانية سنة ١٩٧٠ . دار القلم . الكويت .

نعم : يستحيل أن تتلاشى فكرة التدين من الجماعات الانسانية لأنها - على حد تعبير محمد فريد وجدى - أرقى ميول النفس وأكرم عواطفها ، أو كما يقول أستاذنا الدكتور عوض الله حجازى :

إن الدين أمر ضرورى للانسان لا تستغنى عنه جماعة بشرية مهما كانت بدائية وأن فكرة التدين موجودة فى الانسان وملازمة له منذ نشأته (١) .

أجل . ستعود أوربا يوما (ما) إلى الدين ، وأغلب الظن فإنها لن تعود إلى اليهودية أو إلى المسيحية بعد تجاربها المريرة معها . بل سوف تتجه - يقينا - إلى الإسلام دين الله الحق الذى إختتم الله به رسالات السماء وتكفل بحفظ القرآن الكريم - دستور الإسلام الخالد - (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون (٢)) ورضيه ديناً للبشرية قاطبة (إن الدين عند الله الإسلام (٣)) . (ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين (٤)) .

وسوف تجد أوربا فى الدين طمأنينة القلب ورضى النفس وشفاء الروح .

وسوف تسعد أوربا بهذا الدين وترتفع على أنواره وهداه من وهدة الضياع والحيرة لتستقر على طريق السعادة فى حاضرها ومستقبلها وليس ذلك على الله بعزيز (والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٥)) .

هذا وبالله التوفيق

---

(١) مقارنة الأديان بين اليهودية والاسلام ص ١٤ : ١٥ . طبعة ثانية سنة ١٩٨١ دار الطباعة المحمدية .
(٢) سورة الحجر : ٩ .
(٣) سورة آل عمران : من الآية ١٩ .
(٤) آل عمران : ٧٥ .
(٥) سورة يوسف : ٢١ .

اهم المراجع حسب ورودها فى البحث

١ — القرآن الكريم .

٢ — الكتب الصحاح .

٣ — الاناجيل .

٤ — دلائل النبوة ومعجزات الرسول — دكتور عبد الحليم محمود — ط دار الانسان القاهرة ١٩٦٤ .

٥ — نحو القرآن — دكتور البهى — مكتبة وهبة ١٩٧٦ .

٦ — الأيدلوجيات والفلسفات المعاصرة فى ضوء الاسلام — انور الجندى — دار الاعتصام .

٧ — الحلول المستوردة وكيف جنت على امتنا — د. يوسف القرضاوى — مكتبة وهبة سنة ١٩٧٧ م .

٨ — سقوط العلمانية — انور الجندى .

٩ — مذاهب فكرية معاصرة — محمد قطب — دار الشروق بيروت سنة ١٩٨٣ م .

١٠ — ورقة ثقافية فى الرد على العلمانيين — د.محمد يحيى — الزهراء للاعلام العربى سنة ١٩٨٥ م .

١١ — المسيحية — د.احمد شلبى — طبعة خامسة .

١٢ — اظهار الحق ج ٣ — رحمة الله الهندى — مطبعة الرسالة — الدار البيضاء .

١٣ — تاريخ البشرية — اعداد اللجنة الدولية — اشراف منظمة اليونسكو طبعة القاهرة سنة ١٩٨٦ .

١٤ — محاضرات فى النصرانية — الشيخ ابو زهرة — دار الفكر العربى طبعة ثالثة .

١٥ — يسوع المسيح — للأب بولس الياس .

١٦ — تاريخ الاقباط — زكى شنوده .

١٧ — الاضطهاد الدينى فى الاسلام والمسيحية — د.توفيق الطويل .

١٨ — الجفوة المفتعلة بين العلم والدين — د.محمد على يوسف .

١٩ — الملل والنحل — للشهرستانى : تخريج : بدران .

٢٠ — الفصـــل — لابن حزم — طبعة ثالثة بيروت سنة ١٩٧٥ .

٢١ — قضية النزاع بين الدين والفلسفة — د.توفيق الطويل : مكتبة مصر .

٢٢ — طبيعة السيد المسيح — وهيب عطا .

٢٣ — رسالة الأصول والفروع — القس بوطر .

٢٤ — رسالة المعاش والمعاد — الجاحظ .

٢٥ — الجواب الصحيح — لابن تيمية .

٢٦ — الفنون والطرز القبطية — د.محمد حماد .

٢٧ — المسيحية نشأتها وتطورها : لشارل جنيز ترجمة د.عبد الحليم محمود — المكتبة العصرية — بيروت .

٢٨ — الاسلام والنصرانية — الامام محمد عبده : طبعة المنار سنة ١٩٦٣ م .

٢٩ — تهافت العلمانية — د.عماد الدين خليل — مؤسسة الرسالة سنة ١٩٧٩ م .

٣٠ — العدالة الاجتماعية — سيد قطب .

٣١ — المجتمع الأسلامى — د.احمد شلبى سنة ١٩٧٤ طبعة رابعة .

٣٢ — معالم تاريخ العصور الوسطى — محمد رفعت وآخر .

٣٣ — ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين — أبو الحسن الندوى — دار الانصار طبعة عاشرة .

٣٤ — الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر — د.محمد محمد حسين .

٣٥ — مؤامرة فصل الدين عن الدولة — محمد كاظم حبيب .

٣٦ — عقائد المفكرين فى القرن العشرين — العقاد — دار الكتاب العربى — بيروت سنة ١٩٧١ .

٣٧ — الاسلام يتحدى — وحيد الدين خان — دار البحوث العلمية .

٣٨ — الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى — د.محمد البهى .

٣٩ — الفلسفة أنواعها ومشكلاتها — منترميد : ترجمة فؤاد زكريا سنة ١٩٧٥ م .

٤٠ — نشأة الفلسفة العلمية — ريشنباخ : ترجمة فؤاد زكريا — دار الكتاب العربى سنة ١٩٧٧ م .

٤١ — الفكر المادى الحديث وموقف الاسلام منه — د.محمود عثمان — مكتبة الانجلو المصرية .

٤٢ — المعرفة عنـد مفكرى المسلمين — د.محمد غلاب — الدار المصرية للتاليف والترجمة .

٤٣ — القرآن والتوراة والانجيل — موريس بوكاى .

٤٤ — تكوين العقل الحديث — جون هرمان لاندال : ترجمة جورج طعمة دار الثقافة — بيروت سنة ١٩٦٦ م .

٤٥ — تاريخ الفلسفة الحديثة — يوسف كرم — دار المعارف سنة ١٩٥٨ .

٤٦ — جهود المفكرين المسلمين المحدثين فى مقاومة التيار الالحادى — د.محمود عثمان — مكتبة المعارض — الرياض سنة ١٩٧١ .

٤٧ — الفلسفة الحديثة — د.ابو ريان : دار الكتب الجامعية .

٤٨ — اصل الانواع — دارون : ترجمة اسماعيل مظهر سنة ١٩٤٨ .

٤٩ — التطور والثبـات — محمد قطب — دار الشروق .

٥٠ — منازع الفكر الحديث — جود : ترجمة عباس فضل — المجمع العلمى العراقى سنة ١٩٥٦ .

٥١ — الدين فى مواجهة العلم — وحيد الدين خان : ترجمة ظفر الاسلام خان — المختار الاسلامى للطباعة والنشر .

٥٢ — العلمانيـة — سفر بن عبد الرحمن الحوالى — دار مكة للطباعة .

٥٣ — الانسان بين المادية والاسلام — محمد قطب — دار الشروق .

٥٤ — قواعد المنهج فى علم الاجتماع — دوركايم : ترجمة د.محمود قاسم .

٥٥ — اطار اسلامى للفكر المعاصر — أنور الجندى — المكتب الاسلامى .

٥٦ — المخططات التلمودية اليهودية — انور الجندى — دار الاعتصام .

٥٧ — الاسلام والدعوات الهدامة — انور الجندى — دار الكتاب اللبنانى .

٥٨ — الاسلام فى عصر العلم — محمد فريد وجدى — دار الكتاب العربى — بيروت سنة ١٩٧٧ .

٥٩ — مكايد يهودية عبر التاريخ — عبد الرحمن حنبكة الميدانى — دار القلم .

٦٠ — العلمانية ونهضتنا الحديثة — د.محمد عمارة — دار الشروق سنة ١٩٨٦ .
٦١ — الملل المعاصرة فى الدين اليهودى — د.الفاروقى .
٦٢ — الشيوعيــة — أحمد عبد الغفور عطار — دار الأندلس سنة ١٩٨٠ .
٦٣ — وجهة العالم الاسلامى : مالك بن بنى : ترجمة د.عبد المقصود عبد الصبور شاهين — دار الفكر .
٦٤ — آراء فلسفية فى ازمة العصر — أوربين كونج : ترجمة محمود محمود — مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٦٣ .
٦٥ — مستقبل الاسلام — محمد عبد القادر العماوى — دار الفكر الحديث .
٦٦ — تجديد الفكر العربى — زكى نجيب محمود — دار الشروق .
٦٧ — الطريق الى مكة — محمد أسد — ترجمة : عفيفى البعلبكى .
٦٨ — مقارنة الأديان بين اليهودية والاسلام — د.عوض الله حجازى — دار الطباعة المحمدية .
٦٩ — الانسان ذلك المجهول : الكسيس كاريل — تعريب : شفيق أسعد — مكتبة المعارف بيروت .
٧٠ — خصائص التصور الاسلامى ومقوماته — سيد قطب — دار الشروق .

الفهـرس

رقم الايداع بدار الكتب ٢٠٨٠ لسنة ١٩٨٨